

لجنة النشر للجامعيين

أبو ذر الغفاري

عبد الحميد جودة السحار

لجنة النشر للجامعيين



مصدر بحث « الاشتراكية فى الإسلام »

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الطبعة الخامسة

يطلب من

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

دار مصر للطباعة

٣٧ (ب) شارع كامل صدقى "الفجالة"

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد ؛ فلم تبق أثارة من ريب لدى الباحثين الأحرار ، فى أن الإسلام قد تضمن من المبادئ السامية ، ما يجعله أقسط ميزان تقوم عليه طبقات الناس ، وتنتظم أمورهم . ومن المشاهد أنه كلما ارتقى العقل الإنسانى الحاضر فى فهم حقائق الحياة ، واكتشاف خوافيها ، واقتراح شتى الحلول لما يواجه من مشاكلها ، عدنا نحن المسلمين إلى ديننا — بعد رؤية هذه الحلول — عودة المرء الذاهل إلى ماضيه الحافل ، وقد اتصل بهذا الماضى فجأة ما أشرقت به صفحته ، وتجددت به ذكرياته ، وسرت فيه كرَّةً أخرى حياته ، لأن الخير الذى يبرق خلال طائفة من مناهج الإصلاح المعاصر ، إنما هو بعض ميراثنا ، فيما آل إلينا من دين عظيم ، (ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وبين يدى القارئ بحث علمى دقيق فى الاشتراكية الإسلامية ، يجلو هذه الحقيقة ، ويؤكدها ، ويعرض فى صدق وإنصاف للمذاهب الاشتراكية الحديثة التى تمخض عنها عهد اليقظة الأوربية الأخيرة ، فيمحص خيرها من شرها ، ثم يحكم على هذا التفكير الأوربى ، بما له وما عليه ، على حد قول القائل :

وقد يجىء بخلط ، فالنحاس له وللأوائل ما فيه من الذهب

ومن المهم أن يعرف الناس أن الإسلام لا يحارب الثروات العامة أو الخاصة ، وإنما يحارب تجرد بعض الناس من الثروة على حساب تضخمها فى ناحية أخرى ،

وأن الإسلام لم يقرن الغنى بحق أدبى ، ولا بحق معنوى ، وفى آيات القرآن ونصوص السُّنة وأعمال الراشدين من الخلفاء ما أشار إليه المؤلف الباحث ، بل ما فصل الكثير منه تفصيلا ؛ وخصوصاً فى حياة أبى ذر الصاحب الأمين لرسول الله . وقد وفق المؤلف إلى إيضاح مواقف أبى ذر ، وأظهر بواعث الإيمان الخالص فى حياته المليئة بالكفاح ، والنصح لدين الله ، والحدب على جمهور المسلمين ؛ وشرح وجهة نظره رضوان الله عليه فى الاعتراض على مظاهر الترف ، وأخلاق الرفاهية التى كانت قد بدأت تعمل عملها بين المسلمين .

ونحن يسرنا أن يتجه الشباب المثقف هذه الوجهة الصالحة ، ونهنى المؤلف على هذا الإنتاج الطيب ، مقدرين لجهده الصادق فى مصادر بحثه المتشعبة ؛ مؤملين أن يكون له فى نفوس القارئين أثره المنشود .

الاشتراكية فى الإسلام

إن الباحث فى النظم الاقتصادية السائدة اليوم يرى العالم أجمع يسير نحو الاشتراكية قدما ، فلم يعد الناس يطيقون رؤية الأموال تتكدس فى أيدى بضعة نفر من الأغنياء ، بينما ملايين من البشر يتضورون جوعا .

المذاهب الاقتصـادية الحديثة :

وقبل أن أبدأ الكلام عن الاشتراكية عامة ، واشتراكية الإسلام بوجه خاص ، أرى لزاما علىّ أن أسرد هنا خلاصة المذاهب الاقتصادية الهامة التى سادت أوربا ، من وقت أن تكونت الدول الحديثة فى القرن السادس عشر ، حتى يسهل علينا التفرقة بين مذهب وآخر ، وحتى نلم بالتطوارت التى طرأت على المذاهب الاقتصادية ، والعوامل التى أثرت فيها ، حتى وصلت آخر الأمر إلى اشتراكية متهافتة لا تستطيع الوقوف على قدميها ، إلى جانب اشتراكية الإسلام ثابتة الدعائم ، موطدة الأركان .

(١) مذهب التجاريين :

تكونت الدول العظمى فى القرن السادس عشر ، وكشفت إسبانيا أمريكا ، فتدفق الذهب والفضة إلى أسبانيا ، فبلغت أوج مجدها وعظمتها ، وحسبت الدول الأخرى أن هذين المعدنين هما أعظم الثروات نفعا ، فراحت كل دولة تعمل على الإكثار منهما ، وأصدرت التشريعات تحذر تصديرهما ، حتى لا يقل ما هو موجود منهما فيها ، وراحت كل دولة تعمل على تنمية مواردها ،

وتنظيم تجارتها، على أساس أن تكون صادراتها أكثر من وارداتها ، لتحصل بذلك على الفرق بين قيمتى الصادرات والواردات بالعملة الذهبية ؛ ولتدعيم هذا النظام : فرضت على الواردات رسوما جمركية عالية ، واهتمت بالصناعة وعملت على ترقيتها ، حتى يتسنى لكل دولة أن تكفى نفسها بنفسها ، وتصدر الفاضل من إنتاجها إلى غيرها من الدول .

جعل هذا النظام الدول كالتاجر سواء بسواء ، تعمل على ترويج بضائعها وإصـــدارها إلى الخارج ، حتى أصبحت تجارتها الخارجية شغلها الشاغل ، وأصبح لها المقام الأول فيها ، وسمى هذا المذهب الاقتصادى — الذى همه اغتناء الشعوب من تكديس المعادن النفيسة — مذهب التجاريين ، وقد ساد هذا المذهب ذلك العصر ، ورفرف على أوربا بأسرها ، على الرغم من مثالبه الجمة . ومن مثالبه تقييد حرية الأفراد ، وتحريم تصدير الغلال (حتى ساءت حالة الزراعة) ، وإقامة العقبات فى سبيل التجارة .

(ب) المذهب الحر :

ظل مذهب التجاريين مسيطرا على أوربا حتى ظهر فولتير ، وروســـو وغيرهما ، يدعون إلى الحرية ويمجدونها ، فأثرت دعوتهم فى الاقتصاديين ، فقام فى انجلترا آدم سميث (أبو الاقتصـــاد السياسى) وفى فرنسا الطبيعيون (الفيزيوكرات) ؛ قاموا بنقد مذهب التجاريين ، ودعوا إلى حرية التجارة ، وتحطيم الحواجز الجمركية ، وكان شعارهم «دعه يعمل ، دعه يمر *Laisser Faire* *Laisser Passer* ؛ أى دع كل فرد يعمل فى حرية ، فلو ترك كل فرد يعمل لمصلحته ، دون تدخل من الحكومة ، لخدم مصلحته على أكمل وجه ، ولخدم مصلحة المجموع فى الوقت نفسه . ولقد لقيت هذه الآراء من الحكومات أذنا واعية

فطبقتها ، وأطلقت الحرية للأشخاص ، وأزالت الحواجز الجمركية ، وعرف هذا المذهب بالمذهب الحر .

وكان من ثمار تطبيقه ظهور فئة الأغنياء الرأسماليين ، وفئة الفقراء المعدمين ، وساعد على توسع الشقة بين الفئتين ، ظهور الثورة الصناعية ، واختراع الآلات ، وانتشار استعمالها فى الصناعات الكبيرة ، الأمر الذى درّ على أرباب الأعمال أرباحا وفيرة ، فزادوا على غناهم غنى ، وحط أجرَ العامل ، لإحلال الآلات محله ، فزاد على فقره فقرا .

(ج) الاشتراكية :

وتلفت بعض المعنيين بشئون الطبقات فهالهم انحطاط طبقة العمال ، وارتفاع طبقة الأغنياء على أكتافهم ، وعزوا الشقاء المخيم على العالم ، وذلك التفاوت الكبير بين الرأسماليين والعمال ، إلى تطبيق المذهب الحر ، ذلك المذهب الذى أطلق الحرية لنفر من الرجال ، فراحوا يعملون على كسب المال ، وتكديس الثروات بين أيديهم ، دون الالتفات إلى العمال الذين هم منبع هذه الثروات . وقد هيأ لهم ذلك المذهب الجائر ، الفرصة لتعسف العمال ، فهم يحددون لهم أجر الكفاف ، والعمال يقبلون ذلك مضطرين تحت ضغط الحاجة ، ليدفعوا غائلة الجوع عنهم وعن عيالهم . وقد قال المشفقون على الطبقات الفقيرة : إن النتيجة الطبيعية للمذهب الحر هى الإخلال بالتوازن الاجتماعىّ ، وإن الثروات العظيمة التى يكدسها الممولون ، ليست ثمرة جهودهم وحدهم ، بل ثمرة جهود العمال أيضا ، وإن السلع المنتجة اشتراك بين جهود العمال ورأس المال ، فينبغى على ذلك ألا يستحوذ صاحب رأس المال على الربح جميعه ، يضيفه إلى

رأس ماله لينميه ، بل العدل يقضى أن يكون رأس المال اشتراكا بين العمال والمولين . وقد عرف هذا المذهب الجديد بالاشتراكية .

وكان رسول الاشتراكية « كارل ماركس » الألمانى ، وقد أخذ كثيرا من آرائه الاقتصادية عن اقتصاديى القرن التاسع عشر . ولكنه تميز عنهم بفلسفته الاجتماعية ، فقد أسس مذهبه الاقتصادى على أساس مذهب سياسى يعرف بالمادية التاريخية ، وهذا المذهب يرجع جميع التطورات والتقلبات التى تصيب المجتمع فى زمان ما ، ومكان ما ، إلى كفاح الطبقات لتحسين حالها : ففى الأزمان الغابرة ، قام الكفاح بين الأحرار والأرقاء ، إلى أن تحرر الرقيق، ثم انتقل الكفاح إلى الأشراف والعامة ، فقامت الثورة الفرنسية على أكتاف العامة ، حتى انمحق الأشراف ، ونشأت طبقة متوسطة تملك أموالا ، وراحت هذه الطبقة تنمى هذه الأموال بتشغيل العمال ، ولم يلبث أن نشأ الكفاح بينها و بين العمال . ولا يزال هذا الكفاح ناشباً حتى الآن . ويرى كارل ماركس قياسا على ما مضى من كفاح بين الطبقات ، أن هذا الكفاح بين الرأسماليين والعمال سيبقى ناشبا حتى يتلاءم نظام المِلْكية مع نظام الإنتاج ، أى حتى تصير المِلْكية اشتراكية ، لأن الإنتاج اشتراك بين العامل و بين رأس المال .

و إن الدارس للمذاهب الاشتراكية . يرى اختلافا كبيرا بينها ، فثم اختلاف بين الاشتراكية الديمقراطية ، والاشتراكية الوطنية (النازية) ، والشيوعية ، والماركسية (اشتراكية رأس المال) . ولكنها على الرغم من هذا الاختلاف تتحد جميعا فى خواص ثلاث ، هى :

١ — تقويض النظام الحالى ، وتشييد نظام جديد على أنقاضه ، يضمن توزيع الثروة توزيعا عادلا بين الأفراد .

٢ — إلغاء المِلْكية الخاصة (ثروات الإنتاج) : كرأس المال، والأرض، والمصانع ، على أن تستولى الدولة على هذه الملكيات جميعها ، وتجعلها مِلْكية عامة تديرها للمصلحة العامة .

٣ — يشتغل الأفراد لحساب الدولة ، بأجور تعطى لهم بالتساوى ، على أساس قيمة العمل الذى ينتجه كل منهم ، وتبعا لذلك لا يكون هناك دخل للأفراد سوى الأجور .

(د) الشيوعية :

وأرى قبل أن أنتقل من هذا الموضوع، أن أذكر نبذة عن الشيوعية ، حتى يمكن التفرقة بينها وبين الاشتراكية ، وحتى نلم بجميع المذاهب الاقتصادية الهامة .

فالشيوعية أقدم المذاهب الاشتراكية ، وتتميز عنها بشيئين :

أولهما — أنها تحرم الملكية الخاصة فى جميع صورها ، فهى لا تفرق بين ثروات الإنتاج وثروات الاستهلاك ، كما تفعل الاشتراكية ، بل تنادى بإلغاء الملكية الخاصة إلغاء تاما .

وثانيهما — أن لها فى التوزيع قاعدة خاصة ؛ وهى : « لكل على حسب حاجته ، ومن كل على حسب قدرته » ؛ أى أن على كل فرد أن يعمل على قدر قوته ، وأن على الحكومة أن تمده بما يسد حاجته .

* * *

هذه هى خلاصة المذاهب الاقتصادية التى سادت العالم مذ تكونت الدول العظمى إلى اليوم ، وإن الباحث فى هذه النظريات والمذاهب يرى بجلاء أن التطرف كان صفتها اللازمة ، فلا قسط ولا اعتدال : فمذهب التجاريين غُولى فى تطبيقه ، والاشتراكية المتباينة غالت فى طلباتها ، ونرى أن كلاًّ من

أنصار هذه المذاهب يزعم أن مذهبه هو المذهب الذى يضمن السعادة والرفاهية للجميع ، ولكن أغلب هذه المذاهب جُرب وطبق ، فلم يأت بالنتيجة المرجوة ، ولم يزدد العالم به إلا سوءا على سوء .

الاشتراكية ركن من أركان الدين الإسلامى :

ولو عاد أنصار هذه المذاهب كلها معنا إلى صدر الإسلام ، لرأوا اشتراكية عادلة معتدلة ، تجمع بين الحرية والاشتراكية ، ولا تترك الغنى يلتهم الفقير ، ولا الجاهل يتساوى مع العالم ، ولا الذين يعملون مع الذين لا يعملون ، بل كانت اشتراكية محببة ، ضمنت السعادة والرفاهية للجميع .

ظهرت الاشتراكية الأوربية من نحو خمسين سنة ، ورأى بعض الاقتصاديين فى ظهورها دليلا على ارتقاء البشرية ورفعتها ، فقد تعلم العالم أخيراً كيف تتضامن الطبقات لخير المجموع وسعادته ، ويزعم الاقتصاديون الأوربيون أن الاشتراكية وليدة التفكير الأوربى . ولا تعجب لزعمهم هذا ، فهم يدعون دائما أن كل رقى وليد التفكير الأوربى . ألم يقولوا بأن الحرية والإخاء والمساواة من نتاج الثورة الفرنسية ؟ ألم يمجدوا تلك الثورة التى أطاحت رءوسا كثيرة ، وجرت فى سبيلها الدماء أنهارا ؟ متجاهلين أن الحرية والإخاء والمساواة من غرس الدين الإسلامى ، متناسين أن الإسلام هو الذى تعهد هذه المبادئ حتى نمت وترعرعت ، وأظلت العالم . إن كانوا يجهلون ذلك فها نحن أولاء نقص عليهم طرفا مما وقع فى صدر الإسلام قبل الثورة الفرنسية بأكثر من ألف عام :

أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر ، فأقبلت فرس ، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو بن العاص فقال :

— فرسي ورب الكعبة !

فلما دنت الفرس عرفها صاحبها المصرىّ فقال :

— فرسي ورب الكعبة !

فقام محمد بن عمرو إلى المصرىّ فضربه بالسوط ، وقال :

— خذها وأنا ابن الأكرَمين .

بلغ ذلك أباه عمرو بن العاص ، فخشى أن يشكو المصرىّ ماناله لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فحبس الرجل ، ولكنه انفلت من سجنه ، وأتى عمر ؛ فأرسل عمر إلى عمرو أن يأتيه من فوره ومعه ابنه محمد ، فلما مثلا أمام أمير المؤمنين أعطى عمر دِرّته للمصرىّ وقال له :

— اضرب بها ابن الأكرمين .

فأخذها الرجل وضرب محمدا ، ثم طلب منه أن يضرب بها عمرو بن العاص نفسه قائلا :

— فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه .

فقال المصرى : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى .

فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه ، حتى تكون أنت الذى تَدَعُه . ثم وجه الكلام إلى عمرو ، وقال قولته المدوية ، قبل الثورة الفرنسية بأكثر من ألف عام :

— أيا عمرو ، متى تَعَبَّدْتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟

وفى الإخاء ، قال الله تعالى فى كتابه العزيز (إنما المؤمنون إخوة) ، وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار عقب الهجرة ، ومن كلامه صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه — أى لأخيه المسلم — ما يحب لنفسه) .

وقال صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : (أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تَعَلَّمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، والمسلمون إخوة ، فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم) ، وقال صلى الله عليه وسلم فى المساواة : (إن المسلمين سواسية كأسنان المُشط) ، وقال تعالى فى كتابه العزيز : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وقامت مشادّة بين أبى ذَر و بلال ، وكانت أمه أعجمية ، فعير أبو ذر بلالا بأمه ، فشكاه إلى النبىّ ، فقال صلى الله عليه وسلم لأبى ذر :

— يا أبا ذر ، ارفع رأسك فانظر ، ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمرَ فيها ولا أسودَ ، إلا أن تفضله بعمل .

وقد مر عمر بمكة ، فرأى الخدم وقوفا لا يأكلون مع ساداتهم . فغضب وقال لساداتهم مؤنبا : « ما لقوم يستأثرون على خدامهم ! » ثم دعا بالخدم فأكلوا مع السادة فى جفان واحدة .

هذه أمثلة للحرية والإخاء والمساواة فى الإسلام ، ولا أحسب أن الحرية والإخاء التى جاءت بها الثورة الفرنسية تتطالّ إلى مثل هذا ، أو تطمع فى أن تصل إلى مثله ، ولكنها الأغراض تلبس الباطل ثوب الحق . . .

رأينا أن أوربة لم تعرف الاشتراكية إلا من خمسين سنة فقط ، أما الإسلام فقد كانت الاشتراكية ركنا من أركانه ، لا يستقيم إلا به ؛ فقد جعل الإسلام للفقير حقا معلوما من مال الغنى ، وقد جعل الزكاة ردفا للصلاة ، قال الله تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) . لقد افترض الله على المسلمين صدقة أموالهم ، تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم ، وفرض على الأغنياء دفع ٢٫٥ فى المئة من رءوس أموالهم كل عام ، يتسلمها بيت مال المسلمين ليوزعها على الفقراء

والمساكين وابن السبيل ، كما فرض على الإبل صدقة ، وعلى الغنم صدقة ، وعلى العروض صدقة ، وفى الفطر صدقة .

الفرق بين اشتراكية الإسلام والاشتراكية الحديثة :

لم تقل اشتراكية الإسلام بإلغاء الملكيات ، وتشغيل الناس جميعا لحساب الحكومة ، بأجر واحد متساو ، كما قالت الاشتراكيات الحديثة ، ولكن جاءت اشتراكية الإسلام ، مخففة من الفوارق بين الناس ، دون الالتجاء إلى مصادرة الملكيات ، لأن الإسلام يعلم أن المساواة المطلقة بين الناس لا تتفق مع النواميس الطبيعية ، فكيف تساوى الجاهل بالعالم ؟ والبليد والنشيط ؟ قال تعالى فى كتابه العزيز : (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) . لأن فى وجود الطبقات المتباينة عمار الكون . وقال عز شأنه : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقد نص القرآن على أن كل فرد لا ينال إلا بقدر سعيه : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) .

ترك الإسلام لكل إنسان رأس ماله ، وترك له حرية التصرف فيه . لأن الإسلام يعلم أن العمل هو رأس مال كل إنسان بمفرده ، وهو مناط سعادة كل فرد فى نفسه ، فلو علم الفرد أن ثمرة عمله ستعود إليه ، لجد ونشط ، وعمل واجتهد ؛ أما إذا أيقن أنه يزرع ليجنى غيره ، ويكد ليشاركه سواه ، فترت همته ، وقعد عن إجهاد قواه العقلية والجسمية ،فيما لا يجنى من ثمرته إلا الكفاف .

علم الإسلام كل هذا ، فلم يأت باشتراكية هدامة ، ولكن جاء باشتراكية معتدلة ، لم تقل بمساواة الناس بعضهم ببعض مساواة مطلقة ، تدعو إلى التكاسل والتواكل ، وانمحاء آية التفاضل من صفحات الوجود ، ولم تترك للفرد الحرية المطلقة التى تؤدى إلى استئثار طبقة من الناس بالمال والتكاثر به دون الفقراء ؛

بل تركت حق المالك له لا يشاركه فيه سواه ، على أن يؤدى زكاته للفقراء . فكانت اشتراكية الإسلام ، التى شرعت من أكثر من ألف عام ، تجمع بين ما جاءت به المذاهب الجديدة ، وتمزج بين ما تناكر من المطالب حديثاً ؛ تجمع بين ما جاء به المذهب الحر المتطرف ، والمذهب الاشتراكى المتطرف ، فجاءت اشتراكية عادلة ، لا تطرف فيها ولا مغالاة .

ولم يكتف الإسلام بما فرضه للفقير من مال الغنى ، بل حبب فى الإنفاق ، وتوعد الذين يكنزون المال بعذاب أليم ، حتى ينفق الأغنياء مالهم على الفقراء ، فتقل الفوارق بين الناس ، قال الله تعالى تحبيباً فى الإنفاق : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) . وقال يتوعد كانزى المال : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) . وقال تعالى تحبيباً فى العطاء : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) . وقال صلى الله عليه وسلم : (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا) . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يعود جميع المسلمين التصدق ، فقال : « على كل مسلم صدقة » ؛ فقالوا : « يا نبى الله ، فمن لم يجد ؟ » قال : « يعمل بيده ، فينفع نفسه ويتصدق » ، قالوا : « فإن لم يجد ؟ » قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » قالوا : « فإن لم يجد ؟ » قال : « فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر ، فإنها له صدقة » .

توزيع المال فى عهد الرسول:

لما عاد النبى إلى المدينة بعد فتح مكة ، واستتباب الأمر له ، أوفد عشّاريه ليجمعوا له عشر إيراد القبائل التى دانت للإسلام من غير أن يتعرضوا لأموالها ، واتجه كل واحد وجهته ، فتقبلتهم القبائل بالترحاب ؛ ولما عادوا إلى المدينة جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يوزع ما جمع على المسلمين بالتساوى ؛ وقد كان النبى يعطى الجزية وما يصالح عليه من المال لكافة المسلمين ، وكان يأخذ الخمس مما يفىء الله عليهم ، فيقوم بتوزيعه على ذوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، فيزيد بذلك فى أنصبتهم ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم فى ذلك : (ما لى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم) .

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم للإسلام رسولا ، وللاشتراكية إماما ، ولله در شوقى إذ يقول :

الإشتراكيون ، أنت إمامهم	لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة	وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب فى حق لديك شريعة	ومن السموم الناقعات دواء
والبر عندك ذمة وفريضة	لا منة ممنونة وحباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله	حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالكل فى حق الحياة سواء
فلو ان إنساناً تخير ملة	ما اختار إلا دينك الفقراء

استمر المال يتدفق على المدينة فى عهد الرسول ، وكان عليه الصلاة والسلام يقوم بتوزيعه على الجميع بالتساوى ، فرفرفت السعادة على المسلمين ، وأحب الفقراء الأغنياء ، وجعل الأغنياء ينفقون على الفقراء ، لأنهم تعلموا أن ما ينفقونه

باق لهم عند الله ، وسيؤجرون عليه فى الآخرة ، ألم يقل الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين (إن تقرضُوا اللهَ قرْضاً حسناً يضاعِفه ُلكم) .

قانون التوريث:

نجحت الاشتراكية الإسلامية فيما أخفقت فيه جميع المذاهب الاقتصادية ، نجحت فى تحبيب الفقراء فى الأغنياء ، وفى تحبيب الأغنياء فى الفقراء ، وفى العمل على القضاء على الفروق الاجتماعية ، دون إثارة فريق على فريق ، أو التضحية بمصالح فريق لمصلحة فريق ، ومما ساعد على إيجاد التوازن بين الطبقات قانون الميراث الإسلامى . الذى يقضى بأن يرث جميع أبناء الميت تركته ، فساعد هذا على توزيع الثروة على أكبر عدد ممكن ، بعكس قانون التوريث الإنجليزى الذى يقضى بأن يرث الابن الأكبر وحده ما تركه والده المتوفى ، مما يكدس مال الأسرة جميعاً فى يد فرد واحد ، الأمر الذى ينتج عنه ، إلى جانب وقوع النفرة بين الأشقاء ، اختلال التوازن بين الطبقات .

محاولة التحرر من الاشتراكية الإسلامية :

قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبويع أبو بكر خليفة للرسول ، وأراد بعض المسلمين أن يتحرروا من اشتراكية الإسلام بأن يمتنعوا عن تأدية الزكاة ، وقد احتج بعضهم بقوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم) . وقالوا : لسنا ندفع زكاتنا إلا إلى مَنْ صلاته سكن لنا ، يريدون بذلك الرسول ، وأنشد بعضهم :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فواعجبا ما بال ملك أبى بكر

اعتبر أبو بكر أولئك الذين يريدون التحرر من اشتراكية الإسلام بمنع

الزكاة مرتدين عن دينهم ، لأنهم بمنعهم الزكاة ، يقوضون ركنا من أركان الإسلام الخمسة ، فعزم على محاربتهم ، فقال له عمر :

— كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه ، إلا بحقه ، وحسابه على الله) .

ونصحه عمر أن يتركهم وماهم عليه من منع الزكاة ، ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان فى قلوبهم ، ثم هم بعد ذلك يزكون .

فقال أبو بكر لعمر :

— أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ؟ إنه قد انقطع الوحى ، وتم الدين ، أو ينقص وأنا حى ؟ والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عَناقا (عنزاً) كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقاتلتهم على منعها .

وعقد أبو بكر أحد عشر لواء لقتال هؤلاء المرتدين ، الذين يريدون التحرر من اشتراكية الإسلام ، فانتصر عليهم ، وأرغمهم على أن يأتوا بالزكاة عن يد وهم صاغرون ، وبذلك خرج المبدأ ظافراً منتصرا ، يقرر للفقير حقه على الغنى ، وللضعيف حقه على القوى ، وخرجت اشتراكية الإسلام من حروب الردة قوية مدعمة الأركان .

الاشتراكية فى عهد عمر :

استمر أبو بكر يقسم الأموال التى تصل إلى بيت المال بالتساوى على المسلمين كافة ، كما كان الحال على عهد الرسول ، ولكن لما تولى الأمر عمر ابن الخطاب ، رأى أن تسوية المسلمين جميعاً بعضهم ببعض إجحاف بالسابقين

فى الإسلام ، والمجاهدين فى سبيل الله ، قام يخطب الناس ، ليوضح لهم سياسته المالية الجديدة ، قال : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله فى هذا المال نصيب ، إلا عبدا مملوكا ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل و بلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقَدَمه فى الإسلام ، والرجل وعَناؤه فى الإسلام ، والرجل وصاحبه ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعىَ بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال وهو يرعَى مكانه » .

إحصاء الممالك ، وتدوين الدواوين :.

وضّح عمر فى هذه الخطبة سياسته المالية ، وعِبّ انتصارات المسلمين فى فتوحات الشمال ، تدفق المال على المدينة تدفُّقا عظيما . ولم يكن هناك أماكن يُحفظ فيها ، فكان يوضع فى المسجد ، و يقام عليه الُحرّاس . وقدم أبو هريرة عليه من البحرين ، فقال له عمر : ماذا جئت به ؟ قال خمسمائة ألف درهم . فقال عمر : أتدرى ما تقول ؟ قال : نعم ، مئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم . فقال عمر : أطيب هو ؟ قال : لا أدرى . فصعد عمر المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، قد جاءنا مال كثير : فإن شئتم كِلْنا كيلا ، وإن شئتم أن نعد عدا . فأشار بعض المسلمين ، الذين جابوا بلاد الفرس والروم عليه ، أن يدوِّن الدواوين ، أى يكتب قوائم بأسماء الناس ، يوضح أمام كل اسم رزقه الشهرىّ . قال : دونوا الدواوين . ولتنفيذ ذلك أمر عمر بإحصاء جميع القبائل العربية ، فأحصيت ، ووضعت السِّجلّات فى صناديق كبيرة ، وقد بدأ عمر بالأقرب فالأقرب للنبىّ ، ثم فرض لأهل بدر ، ومِنْ بعدهم لأهل الحُدَيبية وبيعة الرضوان ، ثم لمن

بعدهم ، ولأهل القادسيّة واليَرْموك ، وكذلك خَصّ نساءالنبى بعطاء كبير ،فأعطى أزواج النبيّ وعمهالعباس ١٠٫٠٠٠درهم ، إلا عائشة فقدأعطاها ١٢٫٠٠٠ درهم، لمكانتها ومكانة أبيها من الرسول ، وقد فرض ٥٠٠٠ درهم للحسن والحسين ولمن شهد بدرا ، وفرض ٤٠٠٠ درهم لمن كان إسلامهم كإسلام أهل بدر ولم يشهدوها ، و ٣٠٠٠ لعبد الله بن عمر ، ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار ، ولأهل مكة ٨٠٠ درهم ، ولسائر الناس مبالغ تتراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ درهم ؛ ولنساء المهاجرين والأنصار مبالغ تتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ و٤٠٠ و٦٠٠ درهم ، وكان يعطى أمراء الجيوش ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ و ٩٠٠٠ درهم ، بحسب الأعمال التى يقومون بها ، ونفذ هذا النظام فى الأمصار .

ولقد خطب عمر عقب توليته فى الناس ، خطبة طويلة جاء فيها ، فيما يختص بالمال : « لكم علىّ ألا أجتبى شيئاً من خَرَاجكم ، ولا ما أفاء الله عليكم ، إلا مِن وجهه ، ولكم على إذا وقع فى يدى ، ألاَّ يخرج منى إلاّ فى حقه، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ، إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم علىّ ألاّ أُلقيكم فى المهالك ، ولا أُجَمِّركم (أحبسكم) فى ثغوركم (أماكن المخافة بين المسلمين وأعدائهم) وإذا غبتم فى البعوث ، فأنا أبو العِيال حتى ترجعوا إليهم » .

معارضة عمر فى تقسيم الأراضى :

استمرت الاشتراكية الإسلامية مُزْدهرة فى عهد عمر ، فكان يعطى كلاّ نصيبه المعلوم من المال الذى يتدفق على المدينة ، ولما تم فتح العراق ، أشار عليه عبد الرحمن بن عوف أن يقسم أرضها بين المسلمين ، فعارض علىّ ابن أبى طالب وطلحةُ وآخرون فى ذلك . كان عمر يميل إلى عدم تقسيم هذه الأراضى ، واشتد الأخذ والردّ بين عمر و بين مؤيدى التقسيم ، فقال الذين

يريدون تقسيم الأراضى : إن عمر يظلمنا حقوقنا . فما كان من عمر إلا أن جمع خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، وقال لهم :

— إنى لم أُزْعِجْكم إلا لأن تشتركوا فى أمانتى ، فيما حملت من أموركم، وأنا واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى . لست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى معه ، معكم من الله كتاب ينطق بالحقّ ، فوالله إن كنت نطقت بأمر أريده ، ما أريد به إلا الحقّ .

لقد سمعتم كلام هؤلاء القوم ، الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، و إنى أعوذ بالله أن أركب ظلما . لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم ، وأعطيتهم غيره ، لقد شَقِيت ، لكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غَنَّمنا الله أموالهم وأرضهم وعُلُوجهم ، فقسمت ما غنموا بين أهله ، وأخرجت الخمس ، فوجهته على وجهه ، وقد رأيت أن أحبس الأَرَضين بعلوجها ، وأضع عليهم فيها الخراج ، وفى رقابهم الجزية ، يؤدونها ، فتكون فيئا للمسلمين ، المقاتلة والذرية، ولمن يأتى بعدهم . أرأيتم هذه الثغور ، لابد لها من رجال يلزمونها . أرأيتم هذه المدن العظام ، كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ، لابد من أن تُشْحَن بالجيش وإدرار العطاء عليهم. فمن أين يعطَى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج؟

درس المحكمون العشرة القضية ، فرأوا أن الحجج التى ساقها عمر حجج دامغة ، فهو ينظر إلى الإمبراطورية الإسلامية جميعها كشىء واحد ، ويعمل بما فيه مصلحتها . فأقر المحكمون رأيه ، وخالفوا المشيرين بالقسمة . فأوفد عمر عثمان بن حَنيف لمسح الأراضى ، وتقدير خراجها . ولقد تدفق خراج هذه الأراضى على المدينة ، وقُسم على المسلمين . ولقد بلغ خراج الكوفة فى عام واحد مليونا من الدراهم ، قسمت فيما قسم على المسلمين . فلو كان عمر قد أقر المطالبين بتوزيع الأراضى ، ألم تكن هذه الأموال جميعها قد ضاعت على المسلمين ؟

ميزانية الدولة الإسلامية :

الإيرادات :

كانت جميع الأموال التى يحصل عليها المسلمون ترسل إلى بيت مال المسلمين ، وكانت النفقات تدفع من بيت المال ، فكان بيت المال بمثابة وزارة المالية فى الدول الحديثة .

وكانت موارد بيت المال هى : الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والفىء ، والغنيمة ، والعشور . وسنذكر نبذة عن كل منها :

١ — الخراج :

هو : مقدار معين من المال ، أو الحاصلات ، يفرض على الأرض التى صولح عليها المشركون ، ويؤخذ على الأرض التى فتحها المسلمون عَنْوة ، أو الأرض التى أفاء الله بها على المسلمين ، أى التى استحوذوا عليها دون قتال ، فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم بخراج معلوم ، يؤدونه لبيت مال المسلمين . .

وهناك بعض أنواع من الأرض لا يؤخذ عنها خراج ، بل يدفع عنها أصحابها عُشر ثمارها ومحصولاتها ، وهذه تسمى الأرض العُشرية ، ومن الأرض التى لا يؤخذ عنها خراج : الأرض التى أسلم أهلها وهم عليها دون حرب ، فهذه كانت تترك لهم ، على أن يدفعوا عنها ضريبة العشر زكاة ، ولا يجوز بعد ذلك أن يوضع عليها خراج .

وقد قال الماوردىّ فى كتاب الأحكام السلطانية : «الأرضون كلها تقسم أربعة أقسام : أحدها ، ما استأنف المسلمون إحياءه ، فهو أرض عُشْر ، لا يجوز أن يوضع عليها خراج . والقسم الثانى ما أسلم عليه أربابه ، فهم أحق به ،

فيكون على مذهب الشافعىّ أرض عُشر ، ولا يجوز أن يوضع عليها خراج . والقسم الثالث ما ملك عن المشركين عنوة وقهراً ، فيكون على مذهب الشافعىّ رحمه الله غنيمة تقسم بين الفاتحين ، فيملكونها و يدفعون العُشر من غَلَّتها ، وحينئذ تكون أرض عُشْر ، لا يوضع عليها خراج . والقسم الرابع ما صولح عليه المشركون من أرضهم ، فهى الأرض المختصة بوضع الخراج عليها».

وكان الخراج مقدارا من مال أو غلة ، فقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خَيْبَر على نصف ما يخرج من الأرض ، قليلا كان أو كثيراً ، وقد أخذ عمر ١٤ درهما عن الفدان المنزرع قمحا .

جبايةُ الخراج :

كان الخلفاء يعينون عمالا للقيام بجباية الخراج ، فيدفعون منه أرزاق الجند ، وما تحتاج إليه المصالح العامة فى القطر المتحصل منه المال ، و يرسلون الباقى إلى بيت المال ، ليصرف فيما خُصّص له .

قانون من أين لك هذا ؟

لم يترك عمر للولاة الحبلَ على الغارب ، ولم يترك لهم حرية التصرف فى ولاياتهم . بل كان يرسُم لهم السياسة التى ينتهجونها ، وكان يأمرهم بتوزيع الأعطيات على جميع المسلمين فى ولاياتهم ، سواء أ كانوا ممن خرج من جزيرة العرب ، أم ممن أسلم ، كل بحسب ما هو مدوّن له . وكان عمر يكتب أموال عماله إذا ولاهم ، ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك . وحدث ذلك مع سعد بن أبى وقّاص لما ولاه الكوفة ، فإنه قاسمه ماله ، وحدث مثله مع عمرو بن العاص والى مصر ، فإنه كتب إليه : « إنه فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان ، لم يكن حين وَلِيت مصر » . فكتب إليه عمرو : « إن أرضنا

أرض مزدَرَع ومتجر ، فنحن نصيب فضلا عما نحتاج إليه نفقتنا » . فكتب إليه عمرو : « إنى قد خَبَرت من عمال السَّوء ما كفى ، وكتابك إلى كتاب من أقلقه الأخذ بالحقّ ، وقد سِئْتُ بك ظنا . وقد وجهت إليك محمد بن مَسْلمة ليقاسمك مالك ، فأطلعه طلعه ، وأخرج إليه ما يطالبك ، وأعفه من الغِلظة عليك ، فإنه بَرِح الخفاء » . فقاسمه ماله .

وربما أخذه منهم ، وضمه جميعَه إلى بيت مال المسلمين . ولقد حدث ذلك مع أبى هريرة لما وَلاّه على البحرين ، وسيرد ذكر هذه الحادثة فى سيرة أبى ذر .

وكانت تصرف من خراج أرض الأمصار ، أعطيةُ الجند وسائر الكُلَف ، فكان خراج مصر يُصْرف فى مصر ، وخراج الشام فى الشام ، والكوفة فى الكوفة ، وهكذا . ويُحْمَل ما يفضُل إلى بيت المال .

٢ — الجزية :

مبلغ مُعيّن من المال ، توضع على الرءوس ، وتسقط بالإسلام . وقد قال الله تعالى : (قاتلُوا الذينَ لا يُؤمِنونَ باللهِ ولاَ باليومِ الآخِرِ ، ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولُه ، ولا يَدِينون دِينَ الحقّ من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يُعْطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) .

فُرضت الجزية على الذِّمّيين ، ولا غَبْن عليهم فى ذلك ، فقد فرضت الزكاة على المسلمين ، وبذلك تكافأ الفريقان اللذان يعيشان فى دولة واحدة ؛ ويقول الماوردىّ فى كتابه الأحكام السلطانية عن الجزية : « واسمها مشتق من الجزاء ، فيجب على أولى الأمر أن يَضَعوا الجزية على رقاب من دخل الذمّة من أهل الكتاب ، ليقرّوا بها فى دار الإسلام ، ويُلتَزم لهم ببذلها بحقّين :

أحدهما الكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحماية محروسين . وقد كانت المبالغ الآتيـة تؤخذ من الذميين ، وقد رُوعى فيها قدر كل منهم :

١ — أغنياء ، ويؤخذ منهم ٤٥ درهما .

٢ — متوسطو الحال ، ويؤخذ منهم ٢٤ درهما .

٣ — فقراء يتكسبون ، ويؤخذ منهم ١٢ درهما .

٤ — ولا تؤخذ جزية من مسكين يُتصدق عليه ، ولا ممن لا قدرة له على العمل ، ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون ، ونحوهم من ذوى العاهات ؛ ولا تجوز الجزية إلا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة أو صبىّ .

من هذا يتضح أن الخراج على الأرض ، ولا يسقط بالإسلام ؛ أما الجزية فعلى الرءوس ، وتسقط بالإسلام .

٣ — الزكاة :

فرض الله الزكاة على المسلمين لتُعْطَى الفقراء ، فقال فى كتابه العزيز : (خُذْ مِنْ أموالِهِمْ صدقةً تطهِّرُهُمْ وتُزَكّيهِم بهاَ) . وقد فرضت الزكاة على الذهب والفضة ، فعلى كل مسلم أن يخرج ٢½٪ مما يملك زيادة على النصاب؛ ونصاب الذهب عشرون مثقالاً ، وهذا حوالى ١٢ جنيها بالعملة المصرية ، ونصاب الفضة مائتا درهم ، وهذا حوالى ٦ جنيهات مصرية . وفُرضت زكاة على الإبل بشروط ، وعلى عروض التجارة بشروط ، وعلى الزرع والثمار بشروط. ولا مجال لذكر ذلك هنا ؛ أما أوجه صرف الزكاة ، فسنذكرها عند الكلام على المصروفات .

٤ — الفيء :

هو مال وصل إلى المسلمين من المشركين عَنْوةً بلا قتال ، وقد نص الله تعالى على طريقة تقسيمه فى هذه الآية : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله ، وللرسول ، ولذِى القُرْبَى ، واليتامَى ، والمساكينِ ، وابنِ السبيل). وكان الرسول يأخذ خمس الفيء ، يقسمه على ذوى قرباه ، وأهل بيته ، والمسلمين ، وتقسم أربعة أخماس الفيء الباقية على الجند ، إلى أن دون عمر الدواوين ، وحدد لكل عطاءه .

٥ — الغنيمة :

عقب انتهاء غزوة بدر ، بدأ المسلمون يتساءلون عن الغنيمة لمن تكون ؟ قال الذين جمعوها : « نحن جمعناها فهى لنا » ، وقال الذين كانوا يطاردون العدوّ حتى ساعة هزيمته : « نحن واللهِ أحقّ ، فلولانا لما أصبتموها » ، وقال الذين كانوا يحرسون النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أنتم ولا هم أحقّ منا ، وكان لنا أن نقتُلَ العدو ، ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه ما يمنعه ، ولكنا خِفنا على رسول الله كَرَّة العدوّ ، فقمنا دونه » . فأمر النبىّ الناس بردّ كل ما فى أيديهم من الغنائم ، وأمر أن تحمَل إلى أن يرى فيها رأيا ، أو يقضىَ فيها الله بقضائه ، فنزلت الآية : (واعلموا أنّما غنِمتم من شىء فأنَّ لله خُمُسَه) .

قال الشافعىّ فى الغنيمة : « كل ما حصل من الغنائم من أهل دار الحرب ، من شىء قلّ أو كَثُر ، من أرض أو متاع أو غير ذلك ، قُسِم ، إلا الرجالَ البالغين ، فإن الإمام فيهم مخيرٌ : أن يَمُنّ ، أو يقْتل ، أو يَسْبِى » .

٦ — العشور :

قال صاحب صبح الأعشى : « المقرر فى الشرع أخذ العشر من بضائع تجار الكفار ، التى يقدمون بها من دار الحرب إلى دار الإسلام ، إذا شرط ذلك عليهم » ؛ فكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر ، إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى ، وهذا النظام هو المعروف الآن بالضرائب الجمركية .

المصروفات :

١ — كانت أعطيات الجند فى عهد النبىّ غير محدودة ، فكانوا يأخذون نصيبهم من أربعة أخماس الغنيمة ، إلى أن وَلِىَ عمر ، فدوّن الدواوين ، وحدد لكلٍّ أعطيته كما رأينا سابقا .

٢ — وكانت الزكاة تصرف على الفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، وذلك بحسب نص الآية : (إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكينِ والعامِلين عليها ، والمؤلَّفة قلوبهم ، وفى الرِّقاب ، والغارِمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضة من اللهِ ، واللهُ عليمٌ حكيم) . وقد سبق أن بينا أوجه صرف الفىء عند الكلام عن الفىء .

٣ — وكانت الغنيمة تُوَزَّع على الجيش المحارب ، بعد إخراج الخمس للنبىّ ، وقد فاضل صلّى اللهُ عليه وسلم بين الفارس والراجل ، فأعطى الفارس سَهمين ، وأعطى الراجل سهماً واحداً . وقد قال الله تعالى فيما يختص بالغنيمة : (واعلموا أنَّما غَنِمتم من شىء فأنَّ لله خُمُسَه ، وللرسول ، ولذى القُربَى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل) .

٤ — وكان يدفع لكل مولود فى الإسلام مبلغ من المال من بيت مال المسلمين ، كما سيرد بعد حين .

٥ — كان يصرف من بيت المال على مثل رَىِّ التُّرَع وحفرها للزراعة ، وكانت نفقات المساجين ، والمرضَى من الذمِّيين ، وأسرى المشركين : من مأكل ، ومشرب ، وملبس ، ودفن من يموت منهم : من بيت مال المسلمين .

٦ — وكانت المعَدّات الحربية ونحوها تُدْفع من بيت مال المسلمين . .

٧ — وأعْطِيات المؤدبين والمدرسين والعلماء ، كانت تدفع من بيت مال المسلمين .

وهذه صورة مصغرة لأبواب ميزانية الدولة الإسلامية ، وهى لا تختلف كثيرا عن ميزانيات الدول فى القرن العشرين .

المُسِنُّون ، والمواليد ، والمرضَى المتبطلون :

رأى عمر شيخا ضريرا يسأل على باب ، فلما علِم أنه يهودىّ قال له :

— ما ألجأك إلى ما أرى ؟

— أسأل للجزية والحاجة والسن .

فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله ، فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول :

اُنظر هذا وضُرَباءه ، فوالله ما أنصفناه أنْ أكلنا شبيبته ، ثم نخزُه عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب . ووضع عمر عنه الجزية ، وعن ضربائه .

لم يشأ عمر أن يأكله شابا ، ثم يخزَه إذا كبر ، مع علمه أنه يهودِىّ لا يدينُ بدينه ، فماذا عمل عمر للمسلمين الذين قعدتْ بهم السن ؟ إنه لا شك أجرىَ عليهم ما يكفيهم من بيت المال .

لم يكتف عُمَر بحماية المسِّنين ، بل فرض لكل مولود مئة درهم من بيت المال ، ولذلك قصة لا بأس من سردها :

سمع عمر بكاء صبيّ ، فتوجه نحوه ، فقال لأمه :

— اتقى الله ، وأحسنى إلى صبيك .

ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءه ، فعاد إلى أم الصبيّ ، فقال لها مثل ما قال أولا ، ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان آخر الليل سمع بكاءه ، فأتى أمه ، فقال لها :

— ويحك ، إنى أراكِ أم سَوْء . . مالى أرى ابنك لا يقَرُّ منذ الليلة ؟

— ياعبد الله ، قد أَبْرَمْتَنِي منذُ الليلة ، إنى أُرِيغُه عن الطعام ، فيأبى . .

— ولم ؟

— لأن عمر لا يفرض إلا للفُطُم .

— وكم له ؟

— كذا وكذا شهرا .

— وَيْحَكِ تُعْجلينه .

ثم صلى الفجر ، فلما سلم قال : « يا بؤساً لعمر ، كم قتل من أولاد المسلمين » ثم أمر منادياً فنادى : لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام .

ولما سافر عمر إلى دمشق ، مرّ فى الأرض بقوم مُجَذَّمين من النّصارى ، فأمر أن يُعْطَوا من الصدقات ، وأن يُجْرَى عليهم القوت .

مشروع بيفردج ليس بجديد على الإسلام :

وسعت اشتراكية عمر المتعطِّلين ، كما وسعت المسنِّين ، وفرض للأولاد مبالغ من بيت مال المسلمين ، كما أمر بعلاج المرضَى ، وأجرَى القوت عليهم ، ورصد الأرزاق على معلمين يربون الصغار . وهذه اشتراكية عمر ، ثانى الخلفاء الراشدين ، قامت بما لم تقم به أرقى الدول فى القرن العشرين .

لقد حاولت إنجلترا ، وهى أرقى دولة فى الخدمات الاجتماعية ، أن ترفه عن الفقراء بها ، فعجزت عن أن تصل إلى ما وصل إليه الإسلام فى عهد عمر .

ألم يقدِّم السير بيفردج مشروعا إلى البرلمان الإنجليزىّ ، اهتزت له أسلاك البرق فى أنحاء المعمورة ، لما احتواه من ترفيه عن الفقراء وتأمين اجتماعىّ لجميع الرعايا البريطانيين ؟ إن الناظر إلى الجدول الأول من مشروع التأمين الاجتماعىّ فى تقرير « بيفردج » ، يجده قد اشتمل على ما يُعطَى للمتبطِّلين والمسنِّين والأرامل ، وما يعطي فى حالة الولادة والدفن والعلاج الطبىّ. إن هذا جميعه عالجه عمر ، وفرض له من بيت مال المسلمين ؛ أما السير « بيفردج » فيقترح للحصول على المال اللازم لتنفيذ مشروعه نظام التأمين . إن الاختلاف الجوهرىّ بين ما قام به عمر ، وما اقترحه « السير وليم بيفردج » هو أن عمر أعطى وفرض ونفذ ، أما مشروع « بيفردج » فلا زال تحت البحث ، وربما لا يقرُّه البرلمان الإنجليزىّ ، فيصبح من الأمانىّ والآمال . . . وبالرغم من ذلك كله فمشروع « بيفردج » هذا لم يأت بجديد على الإسلام .

* * *

لما مزق المسلمون مُلك كسرى ، حملوا نفائسه إلى المدينة ، وقال عبد الله ابن الأرقم لعمر : اجعلها فى بيت المال ، حتى نقسمها .

فقال عمر : والله لا يُظِلها سقف بيت دون السماء .

فطرحت بين صُفَّتَيِ المسجد ، صفة النساء ، وصُفَّة الرجال ، وطرحت عليها الأنطاع ، وباتوا عليها يحرُسونها . فلما أصبح ، كشف عمر عنها ، فرأى الذهب والفضة ، فبكى ، فقال له عبد الرحمن بن عوف :

ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله إن هذا اليوم ليوم شكر ، ويوم فرح وسرور .

فقال عمر : لا والله ، ما فتح الله على قوم هذا قَطُّ ، إلا جَعَلَ بأسهم بينهم ، وألقِيت بينهم العداوة والبغضاء .

وقام عمر وقسم الغنائم بين المسلمين ، ولقد كان عمر صادق الفِراسة عندما قال مقالته ؛ فإن هذا المال المتدفق أوغر صدور المسلمين بعضهم على بعض ؛ وابتدأت العداوة والبغضاء فى عهد خلفه عثمان بن عفان .

ولقد قال عمر فى أخريات أيامه : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لأخذت فضول أموال الأغنياء ، فقسمتها على الفقراء » ، ولكن عمر قتل قبل أن ينفِّذ هذا ، ومات عمر واشتراكية الإسلام فى أوج مجدها وعظمتها .

اشتراكية الإسلام بعد عمر :

تولى أمر المسلمين بعد عمر عثمان بن عفان ، وكان ورِعا تقيا ، ولكن لم يكن له حَزْم عمر ، وكان به لين لبنى أمية عشيرته ، فأعطى خيبر لمروان ابن الحكم ، وكان النبىّ قد ترك خيبر فيئا للمسلمين ، وظلت كذلك فى عهد أبى بكر وعمر ؛ وأعطى مروان خمس خراج إفريقية كذلك ، وترك لمعاوية خراج الشام ، فاحتجنه ، ولم يوزعه على المسلمين ، فقام أبو ذرّ الغِفارىّ صاحب رسول الله ، وكان فى الشام ، يناوئ « معاوية » ، وثار فى وجهه ، فكان أبو ذر أول ثائر اشتراكى فى العالم ، وقد سردنا تاريخ حياته فى كتابنا هذا .

كانت سياسة عثمان المالية ، ومحاباته لبنى أمية ، سبب غضب الناس عليه ، فقتلوه ، وبُويع على بن أبى طالب خليفة للمسلمين ، فعاد إلى النظام الذى كان متبعاً أيام النبىّ وأبى بكر وعمر ، فقسم الأموال على الناس كافة ؛ ولكن ناوأه معاوية فى الشام ، وقامت الحروب بين المسلمين ، حتى استتب الأمر لمعاوية ، فانقلبت الخلافة إلى مُلك له جميع مظاهر الملك ، وانقلبت الحال من تقشف وقناعة ، إلى عظمة وفخامة ، وإقبال على الدنيا ، فصُرِفت الأموال على

مظاهر الملك وأبهته ، وترك المسلمون ، فضعفت اشتراكية الإسلام فى دولة بنى أمية ، إلى أن ولى الحكم عمر بن عبد العزيز ، فأعاد إليها عظمتها ، ورد حقوق المسلمين التى اغتصبها أسلافه إلى أصحابها ، وعادت الحال فى زمانه إلى ما كانت عليه أيام جده العظيم ، عمر بن الخطاب .

اشتراكية الإسلام فى عهدها الزاهر :

شيع عمرُ بنُ عبد العزيز سلفه سليمان إلى مقره الأخير ، ولما خرج من قبره ، أقبل ركب الخليفة ، فرأى خيلا و براذين و بغالا مطهمة ، لكل دابة سائس ، فقال :

— ما هذا ؟

— مواكب الخلافة ، يركبها الخليفة أول ما يلى .

— دابتى أوفق .

والتفت إلى مزاحم تابعه ، وقال :

— يا مزاحم ، ضم هذه إلى بيت مال المسلمين .

وفعل ذلك بالسُّرادقات ، والحجر التى نصبت له ، فضمها إلى بيت مال المسلمين ، ولما بلغ منزل الخلافة ، قال أولاد سليمان له :

— هذا لك ، وهذا لنا .

— وما هذا ؟ وما هذا ؟

— هذا ما لبس الخليفة من الثياب ، ومسّ من الطيب ، فهو لولده ، وما لم يمس ، فهو للخليفة من بعده ، هو لك .

ما هذا لى ، ولا لسليمان ، ولا لكم ، ولكن يا مزاحم ، ضم هذا كله إلى بيت مال المسلمين .

تلفت عمر حوله ، فألفى نفسه قد ورث عن أبيه ضياعا وأموالا ، وجعل يفكر فى كيفية حصول أبيه وآل بيته على تلك الضياع الواسعة ، فأيقن أن ما جمعه أبوه وآل بيته ، لم يكن بالطرق المشروعة ، فعزم على التخلص مما ورثه ، ورده على من أخذ منه ، فقال لمزاحم :

— يا مزاحم ، إن هؤلاء القوم قد أعطونا عطايا ، والله ما كان لهم أن يعطونا إياها ، وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار إلىّ ، ليس علىّ فيه دون الله محاسب .

— يا أمير المؤمنين ، هل تدرى كم ولدك ؟

— أكِلهم إلى الله .

وأمر عمر مناديه أن ينادى : الصلاةَ جامعةً ، ثم خرج إلى المسجد والناس مجتمعة ، وقال لهم : إن أهله قد أقطعوه مالم يكن له أن يأخذه ، ولا لهم أن يعطوه ، وأخبرهم أنه قد بدأ بنفسه وأهل بيته ، فرد ما تحت يده إلى بيت مال المسلمين .

خرج عمر عما تحت يده من قطائع وضياع ، فحرق سجلاتها ؛ وبقيت مزرعتا خيبر والسويداء ؛ ولما علم أن خيبر كانت فيئا للمسلمين أيام النبىّ ، حرق سجلاتها ، وأعادها فيئا كما تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبقى مزرعة السويداء إذ كان قد استنبطها بعطائه .

ابتدأ عمر عهده بإحراق سجلات الضياع التى اغتصبت من المسلمين ، وقطع الجوائز والمرتبات الباهظة ، التى كانت تصرف لبنى أمية فى عهود الخلفاء السابقين ، وأجرى عليهم مرتبات تتناسب مع ما يحصل عليه سائر المسلمين .

ودخلت عليه عمة له تعاتبه على قطع ما كان يجريه عليها أسلافه من عطايا ، فوجدت بين يديه أقراصاً وشيئاً من ملح وزيت وهو يتعشى ، فقالت :

— يا أمير المؤمنين ، أتيت لحاجة لى ، ثم رأيت أن أبدأ بك قبل حاجتى .

— وما ذاك ياعمة ؟

— لو اتخذت لك طعاماً ألين من هذا ؟

— ليس عندى ياعمة ، ولو كان عندى لفعلت .

— يا أمير المؤمنين كان عمك عبد الملك يجرى علىّ كذا وكذا ، ثم كان أخوك الوليد فزادنى ، ثم كان أخوك سليمان فزادنى ، ثم وليت أنت فقطعته عنى .

— ياعمة إن عمى عبد الملك ، وأخى الوليد ، وأخى سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين ، وليس ذلك المال لى فأعطيكه ، ولكنى أعطيك من مالى إن شئت .

— وما ذاك ياأمير المؤمنين ؟

— عطائى مئة دينار ، فهل لك ؟

— وما يبلغ منى عطاؤك ؟

— فلست أملك غيره ياعمة .

لم يخرج عمر بن عبد العزيز المال إلا فى حقه ، فكان لا يحابى أهل بيته ، ولا يعطى أقاربه ، ولا يبذر العطايا فى الأتباع والأذناب ، بل كان يبذل كل جهده فى زيادة مال بيت المال ، فزاد تبعا لذلك فى أرزاق الناس ، وازدهرت اشتراكية الإسلام ، ولم يعد فى دولة عمر بن عبدالعزيز فقراء ، كما سنرى بعد حين.

وجاء عنبسة بن سعيد بن العاص يريد أن يكلم عمر فى عطية قدرها عشرون ألف دينار ، كان قد أمر بها سليمان ، ولم تصرف له بعد ، وكان عنبسة صديقاً لعمر بن عبد العزيز ، فدخل عليه وقال :

— يا أمير المؤمنين ، إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لى بعشرين ألف دينار ، حتى انتهت إلى ديوان الختم ، ولم يبق إلا قبضها ، فتوفى على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستمام الصنيعة عندى ، وما بينى و بينه أعظم مما كان بينى و بين أمير المؤمنين سليمان .

قال عمر : كم ذلك ؟

— عشرون ألف دينار .

— عشرون ألف دينار تغنى أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها إلى رجل واحد ؟ والله ما لى إلى ذلك من سبيل .

وقد استاء بنو أمية من عمر بن عبد العزيز ، لأنه قطع عنهم مرتباتهم الضخمة، وقد بلغه أن يزيد بن عبد الملك قال ساخطاً : « كأنه يظن أنى لا أكون من بعده » ، فأرسل عمر إلى بنى أمية الواقفين ببابه ينتظرون الإذن ليكلموه فى أمورهم : « إن عمر يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : أقسم بالله الذى لا إله إلا هو ، مازلت هذه الليلة الماضية ساهرا أناجى الله وأستغفره، حيث أعطيتكموها دون المسلمين ، فلا والله ، لا أعطيكم درهما إلا أن يأخذ جميع المسلمين ، وأما أنت يا يزيد ، فإذا وليت فشأنك بها » .

ازداد سخط بنى أمية ، وضجوا من الفقر الذى أوصلهم إليه عمر بن عبد العزيز ، فاجتمعوا إليه وقالوا : « إنك قد أحييت بيت مال المسلمين ، وأفقرت بنى أبيك فيما ترد من هـذه المظالم ، وهذا أمر قد وليه غيرك قبلك ، فدعهم وما كان منهم ، واشتغل أنت وشأنك ، واعمل بما رأيت » .

فقال عمر : « ولكنى أرى ذلك ، والله لوددت ألاّ تبقى فى الأرض مظلمة إلاّ رددتها ، على شرط ألا أرد مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائى ، حتى يكون مع ردّ آخرِ مَظْلمة منها خروج نفسى معها .

لقد كان حكم عمر بن عبد العزيز نقمة على الظالمين ، ورحمة على الفقراء والمساكين . لقد استطاع عمر بن عبد العزيز أن يوفّر الخير لكل جائع ، وأن يضمن العدل لكل مظلوم . وكان المال يتدفق على بيت مال المسلمين ، والأموال تجبى للدولة من الأمصار فى مختلف بقاع الأرض ، حتى امتلأ بيت المال وتضخّم .

وكان عمر يستطيع أن يوسع على نفسه وأهله ، دون أن يضر بيت المال شيئا ، ولكنه حرّم على نفسه أن يتقاضى درهما واحدا من أموال المسلمين ، بل تنازل كما رأينا عن أملاكه ، وضمها إلى بيت المال ، لتوزع على السائل والمسكين وابن السبيل ، وكان يقتر على نفسه ليوسع على غيره ، ويقتطع من أهله ليصل أفراد شعبه ، كان يحرم الأغنياء ليعطى الفقراء ، لقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، حتى لم يعد فى دولته فقراء ، وحتى أصبح الرجل يخرج بزكاته ، ليعطيها الفقراء ، فما يلبث أن يعود بها ، لا يجد من يأخذ زكاته ، وفى ذلك يقول يحيى بن سعد :

— بعثنى عمر بن عبدالعزيز على صدقات إفريقية ، فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيهم إياها ، فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر ابن عبدالعزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم .

وفى عهد عمر بن عبدالعزيز ، دخل الذميون فى الإسلام ، فقلّت الجزية تبعا لذلك ، فكتب إليه عامل له فى مصر : « إن أهل الذمة قد أسرعوا إلى الإسلام . وكسروا الجزية ؛ حتى استلفت من الحارث بن ثابت عشرين ألف دينار ، لأتم بها عطاء أهل الديوان » . وطلب والى مصر إلى عمر ، أن يأمر بوقف الذميين عن انتحال الإسلام . فأجاب عمر : «قد وليتك أمر مصر ، وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك . فإن الله إنما بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا » .

وكتب إليه عامله فى العراق عدىّ بن أرطأ : « إن الناس قد كثروا فى الإسلام حتى خفت أن يقل الخراج » . فكتب إليه : «والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا ، حتى نكون أنا وأنت حراثين ، نأكل من كسب يدنا » .

قل الخراج بدخول الناس فى الإسلام ، ولكن بقيت الزكاة اشتراكية الإسلام الحقة .

هـذه صورة اشتراكية الإسلام فى زمن عمر بن عبد العزيز تكاد تظهر كأسطورة من الأساطير فى زمننا هذا ، الذى انتشر فيه الفقر والبؤس ، وأصبح الجوع سِمَته وطابعه .

هذه صورة اشتراكية الإسلام زاهية ساطعة ، فهل بلغ مذهب من المذاهب الاقتصادية هذا المبلغ ؟ وهل يطمع مذهب من المذاهب فى أن يصل إلى هذا ؟ هل يطمع مذهب من المذاهب فى القضاء على الفقر قضاء مبرما ؟ كلا والله ، إن غاية ما يطمع فيه مذهب من المذاهب : هو التخفيف بعض الشىء من ويلات الفقر ، لا القضاء على الفقر ، كما قضت اشتراكية الإسلام عليه فى عهد عمر الزاهر .

زيادة الأعطيات . وإلغاء السخرة ، وإنشاء مطاعم الشعب :

شمل عدل عمر الناس كافة ، فأبطل السخرة ، وزاد الناس أموالا وخيرات ، وأمر عامله فى مصر بالزيادة فى أعطيات الناس عامة ، وجعل للفلاحين عشرات الألوف من الدنانير ، وقد شمل عطفه المرضى وذوى العاهات ، فأمر بإعطائهم ، كما أمر بإنشاء مطاعم للفقراء ، وأوصى ألا يصيب من طعامها إلا من طبخ لهم .

وقد بلغ عمر أن بعض أولاده اتخذ خاتماً ، واشترى له فصا بألف درهم ، فكتب إليه : « أما بعد . فقد بلغنى أنك اشتريت فصا بألف درهم ، فبعه وأشبع به ألف جائع ، واتخذ خاتما من حديد ، واكتب عليه : « رحم الله امرأً عرف قدر نفسه » .

الاشتراكية فى أيام عمر بن عبد العزيز اشتراكية مثالية :

لقـد كان عمر بن عبد العزيز مسلما تقيا ، يخشى الله فى سره وعلانيته ، فكان يقول لزوجه : « يا فاطمة ، إنى أخاف النار ، يا فاطمة إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » . فكان مثال الحاكم المسلم التقى ، الذى طبق تعاليم الإسلام كما أنزلت ، ولا تبديل ولا تحريف ، ولا ظلم ولا جور ، بل إحقاق للحق ، ورد المظالم إلى أهلها ، وبر بالفقراء والمساكين ، فجاءت حكومته مثلا أعلى للحكومة الاشتراكية ، التى شرعها الإسلام لسعادة البشر ورفاهيته .

اشتراكية الإسلام المعنوية :

وبجانب هذه الاشتراكية المادية المحببة ، جاء الإسلام باشتراكية معنوية ، لا تقل عنها عظمة وأثرا ، فقد كان غرض اشتراكية الإسلام المادية ، إزالة الفروق المالية بين المسلمين ، أما هدف اشتراكية الإسلام المعنوية ، فهو إزالة الفروق الاجتماعية بينهم ، شرع الدين الإسلامى الصلاة ، فاشترك المسلمون جميعهم ، غنيهم وفقيرهم ، حاكمهم ومحكومهم ، فى القيام بحركات واحدة ، من قيام وركوع وسجود ، فأشعرهم أنهم جميعاً متساوون أمام الله ، وشرع صلاة الجماعة ، فاجتمعوا جميعا ، غنيهم وفقيرهم ، حاكمهم ومحكومهم ، فى مكان واحد ، يقف فقيرهم بجوار غنيهم ، بل قد يتقدم الفقير ، فيقف فى الصفوف الأولى ، ويتأخر الغنى ، فيقف فى الصفوف الأخيرة ، فألف ذلك بين قلوبهم ، وأزال ما بينهم من فوارق اجتماعية ، وأشعرهم جميعا أنهم سواسية أمام الله . وشرع الدين الإسلامى الصوم ، فصام المسلمون جميعا غنيهم وفقيرهم ، حاكمهم ومحكومهم ، فجاع الأغنياء كما جاع الفقراء ، وأحسوا فى صومهم بما يحس به الفقراء فى حياتهم ، فرقت لهم قلوبهم ، فأجروا عليهم الصدقات مما رزقهم الله ، فساعد هذا البذل على إزالة الفوارق الاجتماعية بين الناس .

وشرع الدين الإسلامى الحج وأوجب خلع الثياب ، فخلع المسلمون جميعهم ثيابهم ، غنيهم وفقيرهم ، حاكمهم ومحكومهم ، ولبسوا جميعا ثياب الإحرام ، فزالت الفوارق بينهم ، وأصبحوا جميعاً حجاجا متساوين ، لاتمييز ولا تفضيل .

كانت الزكاة اشتراكية الإسلام المادية ، وكانت الصلاة والصوم والحج والعمرة من اشتراكية الإسلام المعنوية .

ولقد نجحت اشتراكية الإسلام المادية فى محو الفقر ، والقضاء عليه ، كما نجحت اشتراكية الإسلام المعنوية فى القضاء على الفوارق الاجتماعية ، وإحلال المساواة بين الناس .

هذه هى اشتراكية الإسلام الحقة ، فهل يتطاول إليها ، أو يطمع فى أن يبلغ بعض ما بلغته ، مذهب من المذاهب الاقتصادية ؟ اللهم لا ، فمتى كانت القوانين الوضعية تتسامى إلى وحى السماء .



« ما أقلت الغبراء ، ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر »

حديث شريف

بصيص من نور

عن عبد الله بن الصامت قال : قال أبو ذر : « لقد صليت يا بن أخى قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين » . قال : فقلت : « لمن ؟ » قال : « لله » . فقلت : « فأين تتوجه ؟ » فقال : « حيث وجهنى الله عز وجل » .

اجتمع رؤساء قبيلة غِفار يتشاورون فى أمرهم ، فقد أحتبس الغيث عنهم ، فشح الخير ، وهزلت الأنعام ، وحاق الضيق . وتساءل الرجال : لم ودعهم إلههم مَناة وقلاهم ، على الرغم من أنهم توسلوا إليه أن يمطروا ، ونحروا له الجزور قربانا وزلفى ؟ لقد انصرم أوان المطر ، فما اكفهرت السماء ولا تلبدت بالغيوم ، ولا قالت ولا سحت ، بل كانت عصية الدمع ، صافية الأديم .

ترى هل ضلوا السبيل فحاق بهم غضب الإله ؟ ولكن علام يغضب ، وقد أهريقت له الدماء إكراماً وتعظيما ؟ وفكر الرجال ما شاء لهم أن يفكروا ، وقلبوا وجوه الرأى ، ولكن مايستطيع الرجال فى أمر السماء ، ومن ذا يستطيع أن يزجى السحاب وينزل من السماء ماء ، فيحيي به الأرض بعد موتها إلا مناة إلههم القادر العظيم ؟ فما عليهم إلا أن يخرجوا جميعاً ، رجالا ونساء ، حاجين متوسلين ضارعين ، راجين من مناة عفوه وغفرانه ، داعين إياه خوفاً وطمعاً ، لعله يتداركهم برحمته فيرسل الرياح مقلة سحاباً ثقالا فيحيي به الأرض بعد موتها ، ويبدل بؤسهم رخاء ، وضيقهم فرجا ، وعسرهم يسرا .

تجهزت القبيلة للخروج إلى مناة ، ونهض القوم إلى رواحلهم ، وتسنم أنيس راحلته وزجرها ، فنهضت ، وهمت لتندفع مع القافلة صوب ساحل البحر من ناحية المُشَلَّل بقُديد ، بين المدينة ومكة ، حيث ينتصب صنم مناة ؛

ولكنه تلفت حوله فلم يقع بصره على أخيه أبى ذر بين القوم ، فأناخ راحلته ، واندفع صوب الدار يهتف : « جندب . . جندب » ، ثم دخل الدار ، فألفاه مضطجعا لا يريم ، فقال له :

— ألم يقرع سمعك صوت المنادى يدعو للخروج ؟

— بلى ، ولكنى أشعر بثقل فى جسمى ، وكره فى الحج إلى « مناة » هذا .

— صه واستغفره . ألا تخشى أن يسمعك ، فينزل لعنته عليك ؟

— أو تظن أنه يسمعنا ويرانا ؟

— ما بك اليوم ؟ أمستك جِنة أو أصابك مرض ؟ هيا تب إليه ، عسى أن يقبل توبتك .

وتململ أبو ذر فى مضجعه ، فقال أخوه :

— قم ، قم ، فقد فصلت العير وسبقنا القوم .

وما زال به حتى خرج معه ، وركب أُنَيْس راحلته ، وكذلك فعل أبو ذر على كره منه ، والتفت أُنيس إلى أخيه ، وقال :

— إياك أن تجهر برأيك هذا ، وإلا أيقن القوم أنك السبب فى نقمة مناة عليهم ، ومنع الغيث عنهم ، فيعذبونك .

وأخذ أُنيس يذكر لأخيه فضل « مناة » على العرب ، ويعدد مناقبه ، ولم يك أبو ذر يسمع له إلا بأذن معرضة ، فقد كان شارد النفس ، ساهماً مفكراً .

وبعد أيام أشرفت العير على مناة ، فأناخ القوم رواحلهم ، واستصحبوا عتائرهم (ذبائحهم) ، وأقبلوا على ربهم بقلوب خاشعة مهللين معظمين داعين ، ونحروا عتائرهم فتدفق الدم الأحمر القانى الذى يحبه الإله غزيراً على الأرض ، واستمر أبو ذر يرقب ما يحدث ، وينقل عينه بين مناة وقومه ، فيعجب لقومه وغفلتهم ، كما يعجب لذلك الإله الساكن ، الذى لا يشعر بما حوله ، ولا يسمع

تلك الأدعية الحارة الصادرة من قلوب قانتة ، فكيف له أن يستجيب لها ، وأن يعمل على تحقيقها ؟

وأقبل الليل فبسط أرديته السود على مناة وعباده ، وبات يمد فى هـذه الأردية حتى غمر كل شىء ، وحجب كل شىء ، إلا تلك النجوم التى تلمع فى السماء ، وهذه النيران الخافتة التى شبها القوم ليتبين كل مكانه ، وليعرف كل مقامه ، وتكونت حلقات من السامرين ، وانضم أبو ذر إلى حلقة جلها من المسنين ، ودار الحديث حول الآلهة وعظمتها ، هذا يتكلم عن مناة ، وهذا يحدث عن الفلس ، وهـذا يذكر طرفاً عن اللات والعُزّى بنات الله ، وشفاعتهما إليه .

وحدث رجل عن صنم سعد ومكانته ، فقال آخر :

— هل وصل إلى سمعكم خبر ذلك الرجل الذى شتم سعدا ؟

فقال الجميع باهتمام : « لا ، وما قال ؟ »

— أقبل رجل من مَلْكان بإبل له ليقفها على سعد ، يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه نفرت ، فذهبت فى كل وجه وتفرقت عليه ، وأسف الرجل ، فتناول حجراً ، فرماه به ، وقال : لا بارك الله فيك من إله ، أنفرت على إبلى .

ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ، وانصرف عنه وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يُدعى لغى ولا رشد

فقال أحدهم : قد كفر الرجل والله . وما حدث له ؟

قال المحدث : لا شىء .

وأطرق الجمع ساهمين إلا أبا ذر ، فقد ملأ الحديث قلبه اطمئناناً وثباتاً ،

وشجع الحديث القوم على الخوض فى الأصنام ، فقال أحد السامرين : هل بلغ سمعكم رفض عدى بن حاتم عبادة الفلس ، وعبادة الأصنام وتنصره .

فقال الجميع : لا ، وما حدث ؟

فقال المحدث : أخذ صَيْفِيّ سادن الفَلس ناقة لامرأة من كلب ، من بنى عليم ، كانت جارة للشريف مالك بن كلثوم ، فانطلق السادن بها حتى أوقفها بفناء الفلس ، وخرجت جارة مالك ، فأخبرته بذهاب السادن بناقتها ، فركب فرسا عريا ، وأخذ رمحه ، وخرج فى أثره ، فأدركه وهو عند الفلس ، والناقة موقوفة عنده (أى الفلس) فقال مالك للسادن : خل سبيل ناقة جارتى ، فقال السادن : إنها لربك ، قال مالك : خل سبيلها. قال السادن : أو تخفر إلهك ؟! فقابله مالك بالرمح ، فحلى السادن عقالها ، وانصرف بها مالك ؛ وأقبل السادن على الفلس ، ونظر إلى مالك ورفع يده ، وقال وهو يشير بيده إليه :

يا رب إن مالك بن كُلْثومْ أخفرك اليوم بناب[1] عُلْكوم[2]

وكنت قبل اليوم غير مغشوم

وكان بهذا يحرض الفلس على مالك ، ويطلب منه أن ينزل عليه نقمته وعقابه ، وكان عدى بن حاتم جالسا عند الفلس هو ونفر معه ، فرأى وسمع ، فقال عدىّ : « انظروا ما يصيب مالكا فى يومه هذا » فمضت له أيام لم يصبه شىء ، فرفض عدى عبادته وعبادة الأصنام وتنصر .

وأطرق الجمع ثانية ، وغشى وجوههم الإظلام ، وشعر أبو ذرّ بطمأنينة تشيع فى نفسه ، ووقع هذا الكلام فى نفسه موقع الماء من ذى الغلة الصادى .

وانتثر عقد السامرين ، واضطجعوا حول مناة ، وأقبل سلطان الكرى ، فمس جفون الجميع فناموا وأمعنوا فى الرقاد الهادئ المطمئن ، إلا أبا ذرّ ،

---

(١) ناقة .   (٢) حسن .

فإنه ضم يديه إلى صدره ، وثبّت عينيه فى السماء ، وأخذ يفكر فى حديث القوم وفى الأصنام ، فألفى نفسه ينكر الأصنام وقدرتها ويكفر بها ، وتمتم : « وهل مَناة إلا صنم لا يدعو لغى ولا رشد » وجال فى نفسه خاطر ، فنهض من مضجعه خفيفا ، وجعل يمشى حتى انتهى إلى مَناة ، فتطلع إليه فوجده ساكنا لا يُحس شيئا ، ولا يسمع شيئا ، ولا يرى شيئا ، فمال ، وتناول حجرا فرماه به . فألفاه مغرقا فى البله والوجوم .

فقال له : « إنك عاجز لا قادر ، مخلوق لا خالق ، لاحول لك ولا قوة ، فعلام تعبد ، ولِمَ تنحَر لك العتائر ، وتقدم إليك القرابين ؟! إن قومى فى ضلال مبين » .

وعاد أبو ذرّ إلى مضجعه خفيفا ، هادئ النفْس . مطمئن البال ، فأطبق جفنيه ، وراح فى سُبات عميق .

وتنفس الصبح ، وأطلت الشمس من خدرها ، فبعثت نورها ساطعا ، ودبت الحياة فى عباد مناة ، فهبوا من نومهم ، وظَلّ مناة مغرقا فى سكونه ، ثابتا فى مكانه ، لا يحس شيئا ، ولا يرى شيئا ، ولا يسمع شيئا . وابتدأ القوم يطوفون حوله متبركين قبل رحيلهم ، إلّا أبا ذر ، فقد كذّب وتولّى ، وأتى راحلته فامتطاها ، وشرد ذهنه يفكر فى هذا الكون العريض ، رفع رأسه إلى السماء ، فراعه عظمتها واتساع رقعتها ، فراح يفكر كيف رفعت ، وما بناها ؟ وتطلع إلى الشمس تطلعه إلى شيء جديد ، فألفاها تسبَح فى فضاء واسع لا نهائىّ ، فراح يفكر كيف تبزغ من خدرها ، فيشرق وجهها ، ثم تدرج فى منازلها ، حتى تستوى فى كبد السماء . ثم تنحدر ، حتى تغوص فى الأفق وتختفى ، وكيف يتبعها ليل مدلهم ، يمزق سواده الحالك تلك النجوم الزهر ،

التى ينبعث وميضها هادئا خافتا . . . ظل غارقا فى تأمله وتفكره ، تأملا وتفكرا كانا طليعة لكتائب اليقين التى ستخذل أمامها فلول الشكّ فى نفسه .

وانتهى القوم من طوافهم ، واتجهوا إلى رواحلهم ، وأقبل أُنيس وجعل يتفرس فى وجه أبى ذرّ ، كمن يحاول أن يستشف ما فى نفسه ، فوجده غائصا فى لُجج من الأفكار ، فتركه ولم يحادثه ، وانطلقت القافلة عائدة إلى غِفار ، واستمر أبو ذر غارقا فى بحر من التأملات ، حتى وصلت القافلة إلى فجّ ، فنظر حوله ، فوجد جبالا ، ففكر كيف نُصِبت وما نصبها ، ثم أطرق ينظر إلى الأرض ، ففكر كيف سُطِحت وما طحاها ، وتفاعلت الأفكار فى رأسه ، ودبت الحياة فى نفسه ، وشعر بأشعة من الهدى تتغلغل فى نفسه ، فتمحو فلول الشك التى سكنت فيها أعواما .

وبلغ القومُ غِفار ، فنزلوا عن رواحلهم ، واتجه أبو ذر إلى غِفار ، فإذا الدار ساكنة سكون الرموس ، فقصد إلى مضجعه ، وحاول أن ينام ليستريح من وَعْثاء الطريق ، ولكن النومَ استعصى عليه ، وأدركه الأرق ، وجعل ينتقل به سيال الفكر من مكان إلى مكان ، أخذ يفكر فيمن رفع السماوات ، وبسط الأَرَضين ، ثم أخذ يفكر فى نفسه وفيمن خلقه ، وجعل له عينين يرى بهما ، ولسانا ينطق به ، ونفسا تلهمه الخير والشر ، والتقوى والفجور . واعتدل أبو ذر فى مضجعه ، وقال فى نفسه : « إن مَبدع السماء لا شك أكبر من السماء ، وخالق الإنسان أعظم من الأنسان ، إن خالق هذا الكون عظيم متعال ، وهو أحق بالعبادة من مَناة ، ومن اللات والعُزّى ، ومن إساف ونائلة وسعد ، بل هو أحق بالعبادة منهم مجتمعين ، فهو الخالق البديع المصور القادر ، وهى صخور لا حول لها ولا سلطان » ، وأحسَ بالسرور يسرى

فى قلبه ، واليقين يمزق تلك الغشاوة التى نسجتها أيدى الشك على عينيه ، فخرّ ساجدا لله رب العالمين .

لقد كان أبو ذر ظمآن إلى اليقين ، حتى إذا ظفر به أصبح مبرود الغليل ، وعاد إلى مضجعه ونام ، فانعكس على وجهه شعاع من النور السماوىّ ، تمازجه نفثة من الروح الإلهى ، أنار الله به بصيرته ، وأضاء سريرته .

انبلج الفجر ، ومس بأنامله الرقيقة كل شىء حوله ، فنهض أبو ذر خفيفا، ورفع يديه إلى السماء ، وجعل يدعو الله بصوت خاشع قانت عذب حنون ، ودخل أُنيس ، فوجد أخاه قائما خاشعا ، فهم أن يحادثه ويحاوره ، ولكنه أخذ بما رأى وسمع ، فوقف يرقب أخاه ، وأخيرا جمع شتات نفسه وقال :

— ما تفعل ؟

فالتفت أبو ذر إلى مصدر الصوت ، فوجد أخاه يدرج نحوه ، فقال :

— أصلى .

— لمن ؟

— لله .

— أى إله ؟ إن الصلاة لا تجوز إلا هناك عند نُهم أو مناة .

— لا أصلى لمناة ، ولا لصنم سواه .

— لمن تصلى إذن ؟

— لقد وجدت فى الطبيعة التى لا تُحد ولا تُحصر آية أرشدتنى إلى إله ليس كآلهتكم ، فهو عظيم قادر ، لا مطمع فى أن يرقى إليه العقل ، أو يتناوله بالدرس والبحث والتحليل ، إنما هو قوة أُجلّها ولا أحيط بها .

— أتصلى لإله لا تجده ولا تراه ؟

— إن لم أجده فقد وجدت آيته .

— إن هذا لشيء عجاب ، تترك الآلهة الماثلة أمام عينيك ، والتى إن أردتها وجدتها ، وإن دعوتها كانت قريبة منك !

— ما هذه الآلهة إلا صخور لا تفقه شيئا ، ولا تملك نفعا ولا ضرا .

— أتسفه عقولنا وعقول آبائنا ؟

— وما ذنبي يا أنيس أن كان آباؤنا فى جهالتهم يعمهون ، إن ديننا يا أنيس واه أوهى من خيوط العنكبوت ، تصور أن أحدنا إذا سافر فنزل منزلا ، أخذ أربعة أحجار ؛ فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا ، وجعل الثلاثة الأخرى أثافىّ لقدره . تصور حجرا يصبح ربا إن أعجبنا ، ويصبح حاملاً للقدر إن لم يرق أعيننا . إن هذا عجيب .

— إن ما نفعل من ذلك فى أسفارنا إنما هو للاقتداء بما نفعل عند الكعبة ، وإن الحجر المختار لا يعبد لذاته ، وإنما يعبد على أنه يقوم مقام إساف ونائلة ، وتلك الأصنام المنصوبة بالكعبة .

— ما إساف ونائلة إلا زانيان ، أتحب أن تعبد زانيا ؟

— ما هذا يا أبا ذر ؟

— أجل هما زانيان . فقد كان إساف يعشق نائلة فى أرض اليمن ، فأقبلا حاجين فدخلا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وخلوة من البيت ، ففجر بها فى البيت ، فسخا ، فأصبح الحجاج فوجدوهما ممسوخين : فوضعوهما عند الكعبة ، ليتعظ الناس بهما ؛ فلما طال مكثهما عبدا معها ، هذه هى آلهتكم .

— وما تقول فى تلك الآيات التى صدرت عنها ؟

— لم يصدر عنها شىء ، فهى لا حول لها ولا قوة . وكل ما حدث فهو من عند الله ، ونسب إلى تلك الآلهة بهتاناً وزورا ، قد خرجنا بالأمس حاجِّين إلى مناة ، راجين منه أن يزجى إلينا السحاب الثقال ، وذبحنا عنده الجُزُر

قربانا وزلفى . فما الذى فعله ؟ لا شىء ، لا لأنه غاضب علينا ، أو حانق لذنب اقترفناه ، أو لواجب قصرنا فيه ، بل لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا .

— كفى ! كفى ! كدت أركَنُ إليك ، وأتشكك فى آلهتنا .

— هذا ما كنت أبغى . إنى يا أنيس لأرجو أن تسأم هذه الأصنام كما سئمتها ، وأن تتجه فى دعائك إلى الله ، فاطر السموات والأرض .

— أمن السهل أن نخلع ديننا ونلقىَ به كما نلقى بالثوب الخلق ؟

— نعم يا أنيس ، من السهل أن نفعل ذلك إذا كان ديننا كالثوب الخلق .

ودخلت أمهما عليهما ، فالتزما جانب الصمت ، فقالت لهما :

— ما رأى ولدىّ ؟

فقال أنيس :

— فيم ؟

فقالت الأم : فيما وصلنا إليه من الحال ، فقد انحبس الغيث عنا ، وأجدبت الأرض ، وأصبحنا فى ضيق شديد .

فقال أنيس : الرأى ما ترين .

فقالت : أرى أن ننزل على خالكما ، فهو ذو هيئة وذو مال .

فقال أبو ذر : الرأى ما ترين ، إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا .

* * *

خرج أبو ذر وأنيس وأمهما قاصدين خالهما ، وكان أبو ذر يتفكر ويتأمل فيما حوله ، ولا يمدّ طرفه إلى شىء ، حتى يرى فيه عظمة الخالق ، فيزداد يقينا على يقين . مضوا ترفعهم النجاد ، وتحطهم الوهاد ، وطال بهم السفر ، وكان أبو ذر لا يسمع سوى صوت نفسه ، وأنات المطايا التى كانت ترسلها كلما أحست

التعب ، وحنت إلى الراحة ، وتكشفت لهم أرباض مكة ، فزجروا مطاياهم يستحثونها على الإسراع ، فأغذت السير ، كأنما كانت تفقه أن مرحلتها هذه هى مرحلة النصب الأخيرة ، و بعدها الراحة والدعة والهدوء .

ونزل أبو ذر وأنيس وأمهما على خالهما ، فنزلوا على الرحب والسعة ، وأكرم الرجل وفادتهم ، وأحسن إليهم ، وطال مُقامهم وطاب ، وصاروا فى لين من العيش ، وغدت حياتهم سهلة ميسورة ناعمة ، وأصبحت بشرا متصلا ، ونعيما مقيما . ورأت القبيلة عطف الخال وحدبه على أنيس وأبى ذر ، و إنزالهما من نفسه منزلة ولديه ، فحسدوهما ، واجتمعوا وفكروا فى أن يكيدوا لهما كيدا ، فينزعوا من قلبه هذا الحب ، ليخلو لهم وجهه ، وطالت محاورتهم ، وطال تداولهم ، وأخيرا قر رأيهم على أمر ، واختاروا رجلا منهم ليقوم بتنفيذه .

دخل الرجل على خال أنيس وأبى ذر ، وجلس وأطرق ، فقال الخال : خيرا .

فقال الرجل متكلفا الحزن والإشفاق ، متصنعا التألم :

— قد جئتُ فى أمر ذى بال . ولولا محبتنا لك ، و إعزازنا إياك ، ما فكرنا فى أن نُفْضِىَ إليك بشىء ، أو نعلمك شيئا ، ولكن دفعنا إخلاصنا لك ، و إجلالنا إياك ، أن نزيح الغشاوة عن عينيك ، حتى ترى بعض ما يجرى خلفك ، فقد أحزننا وحز فى نفوسنا ، أن نرى مقابلة الإحسان بالإساءة ، والجميل بالنكران .

شعر الخال بأن وراء هذا الحديث ما وراءه ، وأحس بالقلق يسرى فى نفسه ، فقال :

— أفصح ! ما هناك ؟

— أنيس . . .

— ما به ؟

— إذا ما خرجت جلس إلى نسائك .

— هذا كذب و بهتان !

— كنا نتمنى أن يكون كذبا و بهتانا ، ولـكنها و ياللأسف الحقيقة بعينها.

— وما برهانك ؟

— سل من شئت ؛ فالقبيلة كلها لاحظت ذلك ، وعلمت به . أتحب أن تسمع هذا من أفواه غيرى ؟

— لا . وكفى !

وأطرق المطعون فى كرامته يفكر ، وشعر بغَيرة لاذعة محرقة تأكل قلبه ، وانسل الآخر من الحجرة ، كما تنسل الأفعى .

وحاول الرجل أن يرد إلى نفسه دَعَتها ، وطُمَأنينتها ، فلم يوفق ؛ ووقع فى نفسه حزن ثقيل ، وكان يتجرع كأس الغضاضة إذا أمسى ، و يتجرعه إذا أصبح ، وكان إذا قابل ابنى أخته ازورّ عنهما برغمه ، وأسبغ على الدار رداء من الوجوم ، وفى ذات يوم رأى أبو ذر على وجه خاله شيئا غير ما كان قد تعود أن يراه . رأى قلقا وحيرة ، وهمًّا مقيما ، فسأله :

— ماخطبك ؟ إنى لأنكرك منذ أيام . أراك معرضا عنا ، قليل الحديث، طو يل التفكير .

— لا شىء . . .

— بل هناك شىء ، فما هو ؟ لعلى أستطيع أن أخفف عنك بعض ما يهمك ، أو أشاطرك ما يقلقك .

— قال لى قومى كلمة تملأُ الفم .

— وما قالوا ؟

— قالوا لى : إن أُنيساً أتى أمرا إدّا.

— وما زعموا ؟

— قالوا : إذا خرجت عن أهلى ، خلفنى إليهم أنيس .

فظهر الغضب على وجه أبى ذرّ ، وقال :

— أما ما مضى من معروفك فقد كدَّرته ، ولا جماع لنا فيما بعد.

انبلاج الفجر

جلس أُنيس وأبو ذر أمام دارهما بغِفار ، وأقبل عليهما رجل ، فسلم وجلس فسأله أبو ذرّ :

— من أين ؟

— من مكة .

— وكيف حالها ؟

— ظهر بها رجل يزعم أنه نبيّ يأتيه الخبر من السماء .

— وما فعلوا به ؟

— كذبوه وآذَوه ، ومنعوا الناس عنه ، فلا يمر به أحد إلاّ حذروه إياه .

— ولِمَ لم يستمعوا إليه ؟

— كيف يستمعون إلى من عاب دينهم وسَفّهَ أحلامهم ، وضلل آباءهم ، وسب آلهتهم ؟

— أوَ قَد فعل هذا ؟

— أجل ، ولقد جعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشيء عجاب .

فأطرق أبو ذر مفكراً فى ذلك الذى جعل الآلهة إلها واحدا ولكنه لم يجد هذا شيئا عجابا ، بل وجده ما وصل إليه هو بتفكيره وتأمله فى الكون ، وطال إطراقه ، وطال صمته وتفكيره . فنظر إليه الرجل ، فألفاه ساهما شارد الفكر ، فاستأذن وانصرف ، والتفت أبو ذر إلى أخيه أنيس ، وقال :

— اركب إلى هذا الوادى ، فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، يأتيه الخبر من السماء ، فاسمع من قوله ، ثم ائتنى بخبره .

تجهز أُنيس للرحيل ، وامتطى راحلته ، وانطلق حتى قَدِم مكة ، فاتجه إلى الكعبة ، وطاف بها ، وخرج فوجد جمهرة من الناس ، فسأل رجلا كان قادما نحوه .

— ما هنالك ؟

— الصابئ يدعو الناس إلى دينه الجديد .

فما كاد يصل ذلك إلى سمع أُنيس ، حتى أسرع ، فوجد رجلا يقول :

— الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

فقال أحد الحاضرين : كذبت .

فقال الرجل : إن الرائدَ لا يكذب أهله ، والله الذى لا إله إلا هو ، إنى رسول الله إليكم خاصّة ، وإلى الناس عامّة ، والله لتموتُنّ كما تنامون . ولتبعثُنّ كما تستيقظون ، ولتحاسَبُن بما تعملون ، وإنها الجنة أبدا ، أو النار أبدا .

فقال أحدهم : كيف نبعث بعد أن نكون عظاما ورفاتا ؟

فقال الرجل : « وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا ! قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبُرُ فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسيُنْغِضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا » .

وقف أُنيس يستمع مأخوذاً ، وابتدأ الناس ينفَضُّون من حول النبى ، وقال أحدهم :

— إنه لكاهن .

— بل شاعر .

— لا بل ساحر .

استمع أُنيس إلى النبيّ وإلى قومه ، فأطرق مأخوذا ، ثم غمغم : « والله إن لقوله لحلاوة ، والله إنه لصادق ، وإنهم لكاذبون » .

وركب راحلته ، وراح طوال الطريق يفكر فى محمد ، ويَعجَب من أمره حتى بلغ غِفارا ، فقابل أخاه أبا ذر ، فسأله هذا متلهفا :

— ما عندك ؟

— لقيت رجلا يزعم أن الله عز وجل أرسله على دينك ، ورأيته يأمر بالخير ، وينهى عن الشر .

— ما يقول الناس فيه ؟

— يقولون إنه شاعر وساحر وكاهن ، وما هو بشاعر ، فقد عرفت الشعر كله ، وقد وضعت قوله على أقراء الشعر ، فوالله ما يلتام . وما هو بساحر ، فقد رأينا السّحار وسحرهم ، ونفثهم وعقدهم . وما هو بكاهن ، فقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .

— وما يقول ؟

— يقول قولا عجبا .

— أما تذكر شيئا مما يقول ؟

— والله إن لقوله لحلاوة ، ولكنى لا أذكر منه شيئا .

— لم تَشْفِنى من الخبر ، هل أنت كافٍّ حتى أنطلق فأنظر ؟

— نعم وكن من أهله على حذر ، فإنهم قد شنفوا له وتجهموا .

ولم يطق أبو ذر صبرا ، فحمل شَنَّة له فيها ماء . وامتطى راحلته ، وجعل يجد نحو مكة ، يحدوه الأمل ، وتخفق له الأمانى العذاب فى نفسه ، وتتماثل له فى شكول وألوان . واحتل الدين الجديد فكره ، وغاص فى لُجَج من الأفكار ، فإلى أين يقصد ؟ وكيف يتصل بذلك الرجل الذى يدعو إلى مكارم الأخلاق ؟

ومن يرشده إليه ؟ وإذا سأل عنه ، هل يأمن أذى معارضيه ومكذبيه ؟ وقر قراره على أن يقصد إلى المسجد ملتمسا ذلك النبي .

بلغ أبو ذرّ مكة ، فأتى المسجد ، وراح يبحث عن ذلك الرسول ، ولكنه لم يجده ، ولم يسمع به ، فمكث في المسجد ، وطال مكثه . غابت الشمس ، وأقبل الليل يمد في ردائه الأسود ، وضرب الله على آذان أهل مكة ، وما يطوف بالبيت غير قليل ، وجاء عليّ ليطوف ، فمر بأبي ذرّ . فنظر إليه ، فألفاه جالسا ، فأقبل نحوه ، وقال :

— كأن الرجل غريب ؟

— نعم .

— تعال معي .

فانطلق عليّ إلى المنزل ، وانطلق أبو ذرّ معه ، وسارا صامتين ، لا يسأل أبو ذرّ عن شيء ، حتى بلغا المنزل ، فبات أبو ذر ليلته ، ولما أصبح الصباح ، خرج إلى المسجد يبحث عن النبيّ ، لا يسأل أحدا ، ولا يخبره أحد عنه بشيء ، وطال بحثه ، وطال انتظاره ، وتصرم النهار ، وسجا الليل ، وأقبل عليّ ومر بأبي ذر فتوقف وقال :

— أما آن للرجل أن يعرف منزله بعد ؟

— لا .

— فانطلق معي .

فانطلقا ، وسارا صامتين ، إلى أن قال عليّ :

— ما أمرُكَ ؟ وما أقدمك هذه البلدة؟

— إن كتمت عليّ أخبرتك .

— فإني أفعل .

— بلغنا أنه قد خرج ههنا رجل يزعم أنه نبىّ ، فأرسلت أخى ليكلمه ، فرجع ولم يَشْفِنى من الخبر ، فأردت أن ألقاه .

— أما إنك قد رَشِدْتَ ، هـذا وجهى إليه ، فاتبعنى . ادخل حيث أدخل ، فإنى إن رأيت أحدا أخافه عليك ، قمت إلى الحائط ، كأنى أصلح نعلى ، فامض أنت .

وانطلق الرجلان . وأحس أبو ذرّ بالسرور يشيع فى نفسه ، فقد هـداه الجدّ الموفق إلى أحد أصفياء النبىّ ، وقد شاء الله له الرشَـد والهداية ، وأن يكون من السابقين إلى الإسلام ، المقربين من رسوله ، الناشرين لدينه ، العاملين على رفعته ، ونُصرته وعزه .

ودخل علىّ على النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، ودخل معه أبو ذرّ ، فلما رأى النبىّ صلى الله عليه وسلم قال :

— السلام عليكم [١] .

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . من أنت ؟

— من غِفار .

واتصل حبل الحديث بين النبىّ وأبى ذر ، وتشعبت فنون القول ، وأخيرا قال أبو ذر :

— اِعرض علىّ الإسلام .

— الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيمَ الصلاة .

فقال أبو ذر :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

---

(١) هذا أول سلام ألقى فى الإسلام .

— يا أبا ذر اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل.

قالها رسول الله رءوفاً به رحيما ، ليبعد عنه أذى قومه ، ولكن هل يستمع أبو ذر إلى هذا ؟ وهل يرضى مثلُ أبى ذر أن يكتم إسلامه ؟ لا والله فليَفْعَلَنْه ، وليكن ما يكون ، وليفعل به القوم ما يفعلون ، ليعلنه ابتغاء مرضاة الله ، ليعلنه ولو كره الكافرون ، فيقول للرسول بلغة المعتز بدينه ، الواثق بربه:

— والذى بعثك بالحق ، لأصرخَنَّ بها بين أظهرهم .

خرج أبو ذر قاصدا المسجد ، يملأ صدره إيمان قوىّ ، لا يخشى بطشا ، ولا يهاب أحدا ، حتى بلغ المسجد وقريش فيه ، فقال :

— يا معشر قريش ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

هل يسكت القوم على ذلك الذى جاء يتحدّاهم مستخفاً بهم ، عاملا على تحقير شأنهم ، والنيل منهم ؟ لا . فلْيقوموا إلى هذا الصابئ ولْيضربوه حتى يموت . فقالوا عليه وضربوه ، وأقبل العباس فأكب عليه ، ثم أقبل على القوم ، فقال :

— ويْلَكم تقتلون رجلا من غفار ، وتَجْرُكم ومَمَرّكم على غفار !

فأقلعوا عنه ، وارتفع أبو ذر كأنه نُصُب أحمر ، فأتى زمزم ، وشرب من مائها ، وغسل عنه الدم ، وخرج من الكعبة قاصدا الرسول ، فوجد عنده أبا بكر الصديق :

— متى أنت هاهنا :

فقال أبو ذر : كنت هاهنا منذ ثلاثة أيام .

فقال أبو بكر : فمن كان يطعمك ؟

فقال أبو ذر : ما كان لى طعام إلا ماء زمزم .

فقال أبو بكر : إيذن لى يارسول الله فى طعامه الليلة .

انطلق النبيّ وأبو بكر وأبو ذرّ معهما ، حتى فتح أبو بكر بابا ، فجعل يقبض لهما من زبيب الطائف ، فكان ذلك أول طعام أكله أبو ذرّ بمكة .

وانبلج صبح اليوم التالى ، فأحس أبو ذر رغبة فى الجهر بإسلامه ، ولم يزده إيذاء القوم إلا عزما وتصميما ، فانطلق إلى المسجد ، ووقف وصاح بأعلى صوته :

— يا معشر قريش . . . يا معشر قريش . . .

فتطلع الناس إليه ؛ والتف بعضهم حوله ، فصاح فيهم :

— إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

فزمجر القوم ، وقاموا إليه ، وأشبعوه ضربا ، فخر مغشياً عليه ، وأقبل العباس يواسيه ؛ فقام وراح يمر بيده على وجهه وجسمه ، ثم تأوه من الألم ، ولكنه أحس راحة تشيع فى نفسه ، وتملأ جوانبه ، أنسته آلام جسمه المبرحة ، ثم اتجه إلى حيث كان الرسول الكريم ، فسلم عليه وجلس ، وأخذ بأطراف الحديث .

قال رسول الله : إنى قد وُجِّهت إلى أرض ذات نخل ، فلا أحسبها إلا يثرب ، فهل أنت مُبَلّغ عنى قومك ، لعل الله عز وجل ينفعهم بك ، ويأجرك فيهم ؟

فقال أبو ذر : نعم ، أفعل .

وانطلق أبو ذر إلى غِفار ، يملأ قلبه الإيمان بالله ، وبعظمة رسوله ، ويفكر فيما مرّ به من الأحداث حتى لَقِيَ رسول الله ، فتنبسط أساريرُ وجهه ، وتعلو شفتيه ابتسامة الرضا والاطمئنان ، ويحمد الله أن هداه إلى الرشد ، إلى دين الحق ، إلى الدين الذى ترضاه النفوس الطامحة الباحثة عن الهداية ، المقتنعة بما يقبله العقل ، المعرضة عما يتنافى مع المنطق ، وإن كان فى ذلك تسفيه لأحلام الآباء ، وتحقير لمعتقداتهم . وشارف غفار فأحس بشوق للقاء أخيه وأمه ،

و إبلاغهما نبأ إسلامه ، فزجر راحلته يستحثها على الإسراع ، فانطلقت به ، حتى أتى أخاه أنيسا ، فقال له :

— ما صنعت ؟

— إنى قد أسلمت وصدقت .

— أسلمت وصدقت ؟

— أجل يا أنيس ، إنه دين الحق وإنى أدعوك إليه .

و راح أبو ذرّ يقص على أخيه ما مر به ، منذ تركه إلى أن عاد إليه . فأطرق أُنيس لحظة ، فرن فى أذنه ذلك الكلام الحلو ، الذى سمعه من رسول الله يوم خرج إلى مكة ليستمع إليه ، فسرت فى نفسه نشوة حلوة ، فرفع رأسه ، وقال :

— ما بى رغبة عن دينك ، فإنى قد أسلمت وصدقت .

— هيا إلى أمنا نبلغها النبأ . . .

فنهضا ، واتجها إلى أمهما ، فلما اكتحلت عيناها برؤية أبى ذر قالت :

— ما رأيت ؟

— رأيت رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم حوارا ، وأعظمهم حلما وأمانة ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم من الفحش والأذى ، وما رئى ملاحيا أبدا ، ولا ممariا أحدا ، حتى سماه قومه الأمين ، يدعو إلى الله بالحسنى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، فشهدت أن لا إله إلا الله ؛ وأن محمداً عبده و رسوله ، وأسلمت وأسلم أخى أنيس .

فقالت أمهما : ما بى رغبة عن دينكما ، فإنى قد أسلمت وصدقت .

سُرّ أبو ذرّ لإسلام أهل بيته ، فهل يرضى بهذا ويقنع ، وهل يقبع فى عُقر داره مصليا ذاكرا ربه ، عاملا على إرضائه ؟ لا لن يفعل أبو ذر ذلك ، لَيخرُجَن إلى قومه ، ولَيَدْعُوَنّ إلى دين الله الحق ، ولتكن مشيئة الله .

وأتى أبو ذر قومه ، فألفاهم جالسين عند خفاف بن أيماء بن رخصة الغفارى سيدهم ، آخذين بأطراف الحديث ، فسلم وجلس ، لا ليتحدث مع السامرين ، ولا ليضحك مع الضاحكين ، بل ليبلغهم نبأ ظهور فجر جديد ، فجر سيخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويرفعهم من وهاد الفقر والذل ، إلى الغنى والعز ، والسؤدد والسلطان .

كان الحديث يسرى بين السامرين ، رقيقا كنسمات الأصيل . إلى أن تحدث أبو ذر ، فانقلب ريحا صرصرا عاتية ، أو كثر الجذب والشد ، والأخذ والردّ ، وطال حِوارهم ونقاشهم ، حتى انتصر الحق الأبلج ، وبدَّد بنوره الساطع دياجير الباطل ، قال أبو ذر :

— خرج نبى فى مكة يدعو إلى عبادة رب هذه السماء الصافية ، والأرض المترامية ، والنجوم المتلألئة . . .

فقاطعه أحدهم : أيدَّعِى أن لهذا الكون ربا غير اللات والعزّى ، وهبل ، ومناة ، ونهم ؟

فقال أبو ذر : إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار الصماء .

فقال آخر : أحجار صماء ! أو تقول قوله ؟

فقال أبو ذر : نعم ، هى أحجار صماء ، لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضرا أو نفعا .

فقال آخر : وهل صدقته ؟

فقال أبو ذر : إنه يدعو إلى دين يقبله العقل ، وتستريح إليه النفس ، إنه يدعو إلى الإخاء والمساواة بين الناس ، فلا فرق بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل ، إنه يخلى الطريق بين العبد وربه ، يدخل إليه بغير واسطة ، ويتقرّب إليه بغير زلفى ، ويقول إن الله قريب من عباده : يسمع

شكواهم ودعواهم ، و يعلم ما فى الصدور ، إنه يدعو إلى دين الحق ، فكيف لا أصدقه !

فقال أحدهم : قد ضَلَّ أبو ذر .

فقال أبو ذر : والله قد رَشِد أبو ذرّ وأنتم الضالون .

وقال آخر : فُتِن أبو ذر ، بعد أن قابل الصابئ ، وأصبح صابئاً مثله ، كفر بأربابه ، وسفه أحلام آبائه .

فقال أبو ذرّ : على رِسْلك ، لقد كفرت بالأصنام جميعها ، وباللاتِ والعزَّى ، ومناة ، وهبَل ، ونهم ، قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهديت إلى أنها صخور ، لا تدعى لغىّ ولا رَشَد .

فحدثت ضجة بين القوم ، وارتفعت أصواتهم باستنكار مايعيب به آلهتهم ، فقال أبو ذر :

— فلنتناقش فى هدوء ، ولنقرع الحجة بالحجة ، فما أبغى سوى هدايتكم . دعونى أقصّ عليكم أول ما هُدِيت إلى عجز الأصنام .

فقال أحدهم : لا ، هذا كثير .

وابتدأ القوم يُزَمْجِرون ، فقال سيدهم خُفاف : دعوه يقصّ قصته ، والحق أبلج ، لا يستعصى على البصائر إدراكه .

فقال أبو ذر : أتيت يوما إلى نهم أصب له لبنا ، وقدمت له قربتى المتواضعة خاشعا لأدرأ بها غضبه ، وأبتغى بها مرضاته ، وهممت بالانصراف ، فحانت منى التفاتة عارضة لمعبودى ، فما كان أشد دهشتى إذ رأيت كلبا يشرب اللبن المقدم للإله ، والإله مغرق فى البله والوجوم ، لا يرى شيئا ، ولا يفعل شيئا ليذود عن لبنه المقدس ، وتريثت قليلا أنظر مشدوها ، فرأيت أدهى من ذلك وأمرّ ، رأيت الكلب لا يكتفى باختلاس قربة المعبود العاجز ، بل يرفع رجله

فيبول عليه ، ذلك مبلغ نهم من الحول والقـوة والعزة ، وهذه جلالته ، وهذا سلطانه .

فأطرق الجميع ؛ وسكن المكان سكون الرموس ، وقال أبو ذر :

— ها قد تمردت أفئدتكم على الإيمان بالإله المهين ، وقد بدا لكم ما كنا نخوض فيه من ضلال .

فقال واحد منهم : ومن يدرينا أن النبيّ الذى تتحدث عنه صادق لا كاذب .

فقال أبو ذر : لقد سألت نفسى هذا السؤال ، قبل أن ألقَى رسول الله ؛ ولكن لما رأيت وجهه إذا وجهه ليس بوجه كذاب .

فقال الأول : إذا قدِم نظرنا فى أمره .

فقال أبو ذرّ : إنه يدعوكم إلى الخير ومكارم الأخلاق ، يُدعوكم إلى التراحم والتوادّ ، والبرّ والتقوى ، و ينفّر من الوأد ، فما ذنب طفلة صغيرة بريئة فى أن توارى فى التراب حية ؟ . . لقد جاءكم بهناءة الدنيا وسعادة الآخرة .

وما زال أبو ذر بهم حتى أسلم خُفاف بن رحضة سيد القوم ، وتبع كثير من القوم سيدهم فأسلموا ، وطمع أبو ذرّ فى إسلام بقيتهم ، فقال لهم :

— وأنتم ما يمنعكم من أن تدخلوا فى دين الله ، وتؤمنوا برسوله ؟

فلم يغلظوا له فى القول ، ولم يكذبوه ، وكيف يكذبونه ، وقد حصحص الحق ، وتبين الرشد من الغى ، بل قالوا :

— إذا قدم رسول الله أسلمنا .

وانصرف القوم ، ونامت غِفار ليلتها الأولى فى كنف الدين الجديد ، هادئة مطمئنة ، راضية مرضية .

زمار الحى لا يطرب

وقف خُفاف بن أيماء يصلى بقومه صلاة العصر ، وقضيت الصلاة ، فاتجه كل إلى حال سبيله ، وبقى أبو ذر وخُفاف يتسامران ، فقال أبو ذر :

— مضت مدة طويلة لم نسمع فيها عن محمد وأصحابه شيئا ، تُرَى ما حدث لهم ؟

— عذبت القبائل من آمن منهم وسجنوهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، فهاجر بعضهم إلى الحبشة .

— هذا ماسمعناه من القافلة المتجهة إلى الشام ، ولكن ما جد بعد ذلك ؟ إنى لمتلهّف لسماع أخبارهم ، أشفق من تعذيب الكفار لهم .

— أيظن الكفار أنهم بتعذيبهم للمؤمنين يفتنونهم عن دينهم ، إلى عبادة الأوثان ؟ إنهم لفى ضلال مبين .

— ومتى كان الاضطهاد والتعذيب والتنكيل وسيلة للإقناع ، لقد سكن الإيمان قلوبهم ، ولن يضلّهم الله بعد إذ هداهم .

— لقد حاولوا رد المسلمين إلى حظيرتهم بكافة الطرق ، فباءوا بخزى عظيم ، وأطلقوا آخر سهم فى جَعبتهم ، فعذبوهم وسجنوهم ، وسيرتد سهمهم إلى نحرهم ، وسينتشر الإسلام ولو كره الكافرون .

— لن يخذل الله قوماً يقولون لا إله إلا الله ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وسيظهر الله دينه ، ويعلى كلمته .

وأقبل رجل على خُفاف وأبى ذر ، فسلم ، فسأله أبو ذر :

— من أين ؟

— من مكة .

— وكيف حال محمد وأصحابه ؟

— يذوقون من العذاب ألوانا ، أما سمعتم بقصة الصحيفة ؟

— لا .

— هاجر المسلمون إلى الحبشة ، فجاوروا بها خير جار ، وأمنوا على دينهم ، وعبدوا الله لا يُؤْذَوْن ولا يسمعون شيئا يكرهونه ، وأرسلت قريش عمرو بن العاص إلى النجاشيّ يحمل هدايا كثيرة ، ويطلب إعادة الخارجين عن دين آبائهم ، ولكن النجاشي رفض تسليمهم لما سمع قول جعفر وأصحابه .

فقال خفاف : هل فعل النجاشيّ ذلك ؟ إنه ملك عظيم .

فقال الرجل : بل أكثر من ذلك ، فقد أكرم وفادتهم وأنزلهم منزلة حسنة.

فقال أبو ذر : وما فعلت قريش ؟

فقال الرجل : لما بلغ قريشا فعل النجاشيّ لجعفر وأصحابه ، وإكرامه إياهم ، كثر ذلك عليهم ، وغضبوا على رسول الله وأصحابه ، وأجمعوا على قتل رسول الله ، وكتبوا كتابا على بنى هاشم ألا ينا كحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم ، وعلّقوا الصحيفة فى جوف الكعبة .

ثم حصروا بنى هاشم فى شِعْب أبى طالب ، وانحاز بنو عبد المطلب ابن عبد مناف إلى أبى طالب فى شعبه مع بني هاشم ، وخرج أبو لهب إلى قريش ، فظاهرهم على بنى هاشم و بنى عبد المطلب ، وقطعوا عنهم المِيرة والماء ، فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم ، حتى بلغهم الجهد ، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب ، فمن قريش من سَرّه ذلك ، ومنهم من ساءه ، ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم ، وأن الأَرَضَة قد أكلت ما فيها من قطيعة وَجَور وظلم ، و بقى ما كان فيها من ذكر الله . فذكر رسول الله ذلك لأبى طالب ، فقال أبو طالب : « أحق ما تخبرنى به يابن أخى ؟ » قال رسول الله : « نعم والله » .

فذكر ذلك أبو طالب لإخوته ، فقالوا له : « ما ظنك به ؟ » فقال أبو طالب : « والله ما كذبنى قطّ » ، قالوا : « فما ترى ؟ » قال أبو طالب : « أرى أن تلبسوا أحسن ما تجدون من الثياب ، ثم تخرجوا إلى قريش ، فتذكر لهم ذلك قبل أن يبلغهم الخبر » . فخرجوا حتى دخلوا المسجد ، فقصدوا إلى الحِجْر ، وكان يجلس فيه أكابر قريش وأشرافها ، فترفعت إليهم المجالس ، ينتظرون ماذا يقولون ، فقال أبو طالب : « إن ابن أخى قد أخبرنى ، ولم يكذبنى قطّ ، أن الله قد سلط على صحيفتكم الأَرَضة فلَحِسَت كل ما كان فيها من جَوْر أو ظلم أو قطيعة رحم ، وبقى فيها كل ما ذكر به الله ، فإن كان ابن أخى صادقا نزعتم عن سوء رأيكم ، وإن كان كاذبا دفعته إليكم فقتلتموه ، أو استحييتموه » . فقال القوم : « قد أنصفتنا » ، فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها ، فلم يجدوا بها سوى اسم الله .

فقال أبو ذر : وما فعلوا بعد ذلك ؟

فقال الرجل : سُقِط فى أيديهم ، ونُكِسوا على رءوسهم . فقال أبو طالب : « علام نُحْبَس ونحصر ، وقد بان الأمر » ثم دخل هو وأصحابه بين الكعبة وأستارها ، فقال : « اللهم انصرنا ممن ظلمنا ، وقطع أرحامنا ، واستحل ما يحرم عليه منا » ثم انصرفوا إلى الشِّعب ، وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببنى هاشم ، ولبسوا السلاح ، ثم خرجوا إلى بنى هاشم و بنى المطلب فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ، ففعلوا .

فقال خفاف : وما فعل بقيتهم ؟

فقال الرجل : قَبِلت ذلك على مضض .

فقال خُفاف : إنى لأعجب كيف يلقَى رسول الله كل هذا العنت من أهله وعشيرته .

فقال أبو ذر : لا عجب فى ذلك ، فزمار الحى لا يُطْرِب .

إسلام يثرب

انتشر خبر إسلام يثرب فى غِفـار ، انتشار النار فى الهشيم ، واجتاحت القبيلة موجة من البِشر والسرور ، وأخذ المسلمون يهنئ بعضهم بعضا ، لإسلام الأوس والخزرج ، أطول الناس ألسنة ، وأحدّهم سيوفا ، وأكثرهم مؤاساة . لقد أراد الله إظهار دينه ، ونصر نبيه ، وإنجاز ما وعده .

ودخل أنيس على أخيه أبى ذر يحمل إليه البشرى ، قال :

— قد فشا الإسلام فى المدينة ، وأسلم الأوس والخزرج .

فقال أبو ذر : وسيهاجر إليها رسول الله قريبا .

فنظر أنيس إلى أخيه مدهوشا ، وقال :

— أبلغك أنباء غير ما وصل إلينا ؟

— لا ، ولم أسمع خبر إسلام يثرب إلا منك .

— ومن أدراك أن رسول الله سيهاجر إلى يثرب ؟

— لقد قال لى يوم قابلته : « إنى وُجِّهت إلى أرض ذات نخل ، فلا أحسبها إلا يثرب » صدق رسول الله .

— وهل يتركه قومه يهاجر ، ليقلب المسلمين عليهم ؟

— سواء أتركوه أم منعوه فسيهاجر ، أما كيف ومتى ؟ فهذا من تدبير الله . فدع ما لله لله . .

وهم أبو ذر بالخروج ، فقال أخوه :

— إلى أين ؟

— لقد فكرت فى الخروج إلى يثرب ، لأسمع منهم خبر إسلامهم ، وأتنسم أخبار النبى الحبيب .

وانطلق أبو ذر إلى يثرب ؛ حتى بلغ مسجد بنى زُرَيق ، فسمع مقرئاً يرتل القرآن ، فدخل ، وسأل عمن قابل رسول الله منهم ، فأرشده القوم إلى رافع ابن مالك الزُّرقى ، فاتجه أبو ذر إليه وقال :

— السلام عليك ورحمة الله .

— وعليك السلام ورحمة الله .

وجلس أبو ذر بجواره ، وقال : أنا أبو ذر الغفارىّ أخوك فى الإسلام .

— نزلت أهلا ، هل من حاجة أقضيها لك ؟

— بلغنى أنك أسلمت ، وأسلم الأوس والخزرج ، فاشتاقت نفسى لسماع أخبار الرسول ، فجئتكم عسى أن أجد عندكم ما يخفف من نار الشوق التى تأكل صدرى .

— قد قابلنا رسول الله وأسلمنا ، ولم يبق دار من دورنا إلا فيها ذِكْرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

— ومتى قابلتموه ؟ وأين ؟ وكيف هو ؟

— كنا نزولا بمنى أنا وخمسة نفر من أهل يثرب ، فمر علينا رسول الله ، فوقف وقال : « أحلفاء يهود ؟ » قلنا : « نعم ». فدعانا إلى الإسلام ، وعرض علينا الإسلام ، وتلا علينا القرآن . فأسلمنا . وقال لنا رسول الله : « تمنعون لى ظهرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟ » . فقلنا له : « يا رسول الله ، نحن مجتهدون لله ورسوله ، نحن — فاعلم — أعداء متباغضون ، فإن تقدم ونحن هكذا لا يكون لنا عليك اجتماع ، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعل الله يصلح ذات بيننا ، وموعدك الموسم العامَ المقبل ؛ ولما كان العام المقبل — أى بعد مقابلتنا له بعام — خرجنا عشرة من الخزرج ومن الأوس رَجْلا إلى مكة ، وقابلنا الرسول فأسلمنا ، وبايعنا على بيعة النساء ، على أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرقَ ،

ولا نزنىَ ، ولا نقتلَ أولادنا ، ولا نأتىَ ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيَه فى معروف .

فقال الرسول : « فإن وفيتم فلكم الجنة ، ومن غشى من ذلك كان أمره إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه » ثم انصرفنا إلى المدينة فأظهر الله الإسلام .

— وهل قابلت الرسول بعد ذلك ؟

— أجل . لما حضر الحج ، مشينا بعضُنا إلى بعض ، نتواعد المسير إلى الحج ، وموافاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا ونحن سبعون ، فى جماعة الأوس والخزرج وهم خمس مئة ، حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لنا : « إذا هدأت الرجل وافونى فى الشعب الأيمن ، إذا انحدرتم من مِنًى أسفل العقبة » ، وأمرنا أن لا ننبه نائما ، ولا ننتظر غائبا .

فخرجنا بعد هدوء الرجل نتسلل ، الرجل والرجلان ، وقد سبقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الموضع ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، وليس معه أحد غيره ، اجتمعنا فقال العباس « يا معشر الخزرج ، إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس فى عشيرته ، يمنعه منا من كان على غير قوله ، يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجلد وتبصر بالحرب واستقلال ، العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة ، فارتئوا رأيكم وأتمروا أمركم ، ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع ، فإن أحسن الحديث أصدقه » ، فقال المعرور : « قد سمعنا ما قلت ، وإنا والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وتلا رسول الله القرآن ، ثم دعانا إلى الله ورغبنا فى الإسلام ، فأجابه

البراء بن مَعْرور بالإيمان والتصديق ، ثم قال : « يا رسول الله بايعنا ، فنحن أهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر » . وقال أبو الهيثم : « نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف » وارتفعت الأصوات من كل جانب ، ولغط القوم ، فقال العباس : «أخفتوا جَرسكم ، فإن علينا عيوناً ، وقدموا ذوى أسنانكم فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم » وقال العباس : « ابسط يدك يا رسول الله » ، فضربنا على يده جميعا و بايعناه .

فقال أبو ذر : وكيف كان رسول الله ؟

فقال رافع : طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعة وقوما أهل حرب وعدة ونجدة .

— أما خف عداء قريش له ؟

— لا يا أبا ذر ، فقد بلغنى أن المشركين نالوا من أصحاب رسول الله بعد مقابلته لنا ، مالم يكونوا ينالون من الشتم والأذى ، وضيقوا عليهم ، وتعبثوا بهم .

— سيكون نتيجة هذا الاضطهاد وهذا الضغط ، خروج المسلمين من مكة وهجرتهم إلى يثرب .

— أو يقدم رسول الله معهم ؟

— أجل سيقدم ، فطوبى ليثرب وأهل يثرب .

غفار غفر الله لها

اكتست غفار بحلة من البهجة ، وغمر القوم بشر وسرور ، فقد بلغهم أن رسول الله قادم إليهم مع أبى بكر خليل الرسول و رديفه بين مكة والمدينة ، وشعر أبو ذر بموجة من السعادة تجتاحه ، ووقف مع القوم يتحين قدومه ، وضربت حلقة حوله كان هو قطب رحاها ، وجعل القوم يسألونه عن النبى وكيف هو ، وما شكله ، فكان يجيبهم : « عما قريب سترون خير الناس وأفضلهم » . واستبطأ الناس مرور الزمن ، وجعل أبو ذر يمد بصره يكشف الطريق لعله يلمح الرسول فيزف إليهم بشرى قدومه ، فيرد إلى تلك النفوس الصادئة لرؤياه طمأنينتها ، و إلى تلك الأفئدة التى تتفاعل فيها الأشواق لسماع حلو حديثه والخوف لتأخره هدوءها ودعتها .

ومر الوقت بطيئا ، و بنو غِفار ينتظرون قدوم الرسول متلهفين قلقين ، ومد أبو ذرّ بصره فلمح بعيرا قادما، فتأمله وأطال النظر ، وتطلع الجميع إلى حيث ينظر أبو ذرّ ، وأخيرا هتف: « هو والله رسول الله »، فردد الجميع: « جاء نبى الله » ،وأسرع أبو ذرٍ وسلم على الرسول ، وأخذ زمام راحلته ، وسار الناس من حولهم يتصايحون « الله أكبر » وجعل الولائد والصبيان والإماء يرددون « هذا رسول الله قد جاء » . ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن راحلته ، وجاء المسلمون يسلمون عليه ، وجلس الرسول ، وقام أبو بكر يذكر الناس ، وقرأ النبى القرآن وجعل يدعو الناس إلى الإسلام ، فأقبل الناس يبايعون ، و وقف أبو ذر بجوار الرسول فخورا مسرورا .

وتفرس الناس فى النبى فرأوا رجلا ظاهر الوضاءة ، متبلج الوجه ، حسن

الخلق ، لم تعبه ثجلة (ضخم البطن) ولم تزر به سعلة (نحول فى البدن) وسيم قسيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف (فى شعر أجفانه طول) ، وفى صوته صحل (صوت البحة) ، أحور أكحل أزج أقرن ، شديد سواد الشعر ، وفى عنقه سطع (ارتفاع وطول) ، وفى لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ، و إذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات (جواهر) نظم يتحدرن ، حلو المنطق فصل ، لا نزر ولا هذر ، أجهر الناس وأجمله من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب . ربعة (وسط ما بين الطويل والقصير) لا تشنؤه (تبغضه) من طول ولا تقتحمه عين من قصر .

وطلب خفاف بن رحضة الغفارى من الرسول أن يكتب كتاباً لقومه ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنى غفار : إنهم من المسلمين ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، و إن النبى عقد لهم ذمة الله وذمة الرسول ، على أموالهم وأنفسهم ، والنصر على من بدأهم بالظلم ، وأن النبى إذا دعاهم لينصروه أجابوه ، وعليهم نصره إلا من حارب فى الدين ، ما بلّ بحر صوفة ، وأن هذا الكتاب لا يحول دون إثم .

أسلم بنو غفار ، وانشرح صدر أبى ذر لما رأى بنى قومه يدخلون فى دين الله أفواجا ، فرفع يديه إلى السماء وتمتم :

— الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

فالتفت الرسول إلى أبى ذر وقال : غِفار غفر الله لها » .

الانطلاق إلى يثرب

انطوى الزمن ، واتجه أبو ذر إلى المسجد ، فى عصر يوم من الأيام ، ليصلى مع الجماعة صلاة العصر ، فدخل بقامته الطويلة النحيلة ، ولما قضيت الصلاة انتحى ناحية من المسجد ، وجلس بجوار رجل يقرأ القرآن بصوت شج عذب ، فأنصت إليه ، وأطرق فى خشوع ، وجعل الرجل يرتل :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلُّكُم على تجارةٍ تُنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمونَ ، يغفر لكم ذنوبَكم ، ويدخِلكم جنات تجرى مِنْ تحتها الأنهارُ ، ومساكنَ طيِّبةً فى جنَّاتِ عَدْنٍ ، ذلِكَ الفوْز العظيم » .

كان أبو ذر يستمع إلى الآيات بأذن واعية ، فحركت الدعوة إلى الله و إلى دار السلام نفسه الأبيَّة ، وجعلته يفكر فى حاله ، وفيما يقعده عن الانطلاق إلى يثرب والانضمام إلى الرسول والجهاد فى سبيل الله ، وما الذى يضطره إلى البقاء فى غفار ، بعيدا عن إخوانه المجاهدين العاملين على إعلاء كلمة الله ونشر دينه . لا شىء ! فليهاجرنَّ إلى رسول الله ، وليقاتلنَّ الكفار معه ، فإمّا عز ونصر ،و إما استشهاد وموت ، وجنات عرضها السموات والأرض . و بدا العزم على وجهه الأسمر ، فنهض وخرج إلى الدار ، فوجد أخاه أنيساً ، فقال له :

— سأخرج غدا إلى يثرب .

— أتمكث بها طويلا ؟ متى تعود ؟

— لعلى لا أعود أبدا .

— وماذا تفعل هناك ؟

— أنضم إلى الرسول ، ولن أفارقه بعد اليوم .

— وعلى من تنزل ؟

— أنام فى المسجد مع أصحاب الرسول ، الذين لا مأوى لهم غيره .

— لقد أسلمت وصدقت ، ونلت ما تبغى ، فابق فى قبيلتك ، بالقرب من دارك ، فأهلك أولى بك .

— النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، كفى يا أُنيس ما ضاع ، لقد غزا النبى غزوة بدر وأنا فى غِفار ، وغزا غزوة أُحد ، واستشهد من أصحابه من استشهد ، ونالوا الدرجة العليا ، وأنا قابع هنا فى عُقْر دارى ، ووقعت واقعة الخندق وأنا متقاعد عن الجهاد . ألا كفى يا أنيس ما فاتنى من خير .

— ابق فى دارك ، وإذا دعيت للجهاد فلبِّ النداء .

— ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وقد وهبت نفسى لله ، ولا مطمع لى فى حُطام هذه الدنيا الفانية ، وكل ما أبغى هو رضا الله ورسوله ، فما الذى يدعونى إلى البقاء ؟ والله لأنطلقن إلى يثرب ، والله يهدى السبيل .

وهمَّ أبو ذر بالخروج ، ولم يتزود ، ولم يأخذ معه شيئا ، فقال أنيس :

— أليس تتخذ من الزاد ما يصلحك و يبلغك ؟

— يكفينى كِسرَة خبز طوال الطريق .

وانطلق أبو ذر إلى يثرب ، وانضم إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأصبح تابعا من أتباعه ، يغترف من معين علمه الذى لا ينضُبُ ، ويتأدب بآدابه ، ويحاكيه فى زهده ، ويتمثل به فى بِرّهِ وعطفه وكرمه .

أهل الصفة

أصبح أبو ذر يقضى عامّة يومه فى مسجد الرسول ، عاكفا على العبادة ، منقطعا إلى الله تعالى ، معرضا عن زخرف الدنيا وزينتها ، زاهدا فيما يقبل عليه الناس من لذة ومال وجاه . وكان إذا جَنّ الليل ، أوى إلى المسجد مع ناس من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا منازل لهم ، وما لهم من مأوى غيره ، وكان الرسول يدعوهم إليه بالليل إذا تعشى ، فيفرقهم على أصحابه ، وتتعشى طائفة منهم معه ، وقد كان أبو ذر من هذه الطائفة ، وقد أراد الله به خيرا ، ففتح له قفل قلبه ، وجعل فيه اليقين والصدق ، وجعل قلبه واعيا لما سلك فيه ، وجعل قلبه سليما، ولسانه صادقا ، وخليقته مستقيمة ، وجعل أذنه سميعة ، وعينه بصيرة ، فسمع من الرسول ووعى ، وتعلم وحفظ ، وتحدث وروى ، فكان من أعظم المحدثين ، وحاكى الرسول فى زهده ، فكان أشهر الزاهدين .

وفى ذات يوم دخل عمر المسجد ، وإذا أبو ذر جالس وحده ، فقال عمر :

— لمَ تجلس وحدك ؟

فقال أبو ذر : اجلس ، الصاحب الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من صاحب السّوء ، ومملى الخير خير من مملى الشر ، والأمانة خير من الخاتم ، والخاتم خير من ظن السوء ..

وأخذ أبو ذر وعمر بأطراف الحديث ، وتوافد الناس على المسجد ، وأذن بلال لصلاة المغرب ، فخرج النبىّ وصلى بالناس ، ولما قضيت الصلاة ، تكوّنت حَلَقات من الذاكرين الله ، والمستمعين إلى الرسول ، وجلس أبو ذر يستمع إلى الرسول وهو يقول :

« كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، من تركه من جبّار قصَمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تقضى عجائبه ، هو الذى لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا : (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به) ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

وعقب صلاة العشاء انصرف الناس من المسجد ، و بقى أهل الصفة ليمضوا ليلهم فيه ، ودخل الرسول منزله ، ونام أصحابه ، ولما انقضى من الليل ثلثه ، خرج الرسول إلى المسجد ، وقال لأبى هريرة :

— ادع لى أصحابى .

فجعل أبو هريرة يأتيهم رجلا رجلا فيوقظهم ، وأيقظ أبا ذر ، حتى جمعهم ، فجاءوا باب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنوا ، فأذن لهم ، فدخلوا وكانوا قرابة ثلاثين رجلا ، ووضع الرسول لهم صحفة فيها صنيع شعير ، ووضع يده عليها وقال :

— «خذوا باسم الله ، والذى نفس محمد بيده ما أمسى فى آل محمد طعام ليس شيئا ترونه » .

فأكلوا ما شاءوا ، ثم عادوا إلى المسجد ، ليستأنفوا نومهم ، فما مست جنوبهم الأرض ، حتى مس سلطان الكرى جفونهم . فأمعنوا فى الرقاد الهادئ المطمئن ؛ ونشر السكون غلالته على المكان ، وأطبق أبو ذرّ عينيه ، ولكنه سمع حفيف ثوب ، ففتحهما ، فرأى رسول الله مقبلا إلى المسجد من منزله ، فجعل يرقبه ، فألفاه يتجه إلى القبلة و يأخذ فى الصلاة ، فأرهف أذنيه ، فسمعه يقرأ بآية :

« إن تعذبْهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

واستمر يرقب الرسول، فوجده يركع و يسجد بها طَوالَ الليل حتى أصبح ، فازداد عجبه ، واشتاق لمعرفة سر ذلك ، فلما انتهى رسول الله من صلاته ، قام أبو ذر إليه ، وقال :

— يا رسول الله ، ما زلت تقرأ هذه الآية ، حتى أصبحت ، تركع وتسجد بها .

قال الرسول :

— « فإنى سألت الله الشفاعة فأعطانيها ، وهى نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عزوجلّ » .

الوصية

دارت عجلة الزمن . واشترك أبو ذر مع النبي في جميع غزواته التي تلت الخندق ، فكان شجاعا ، ينفرد وحده ، فيقطع الطريق ، ويغير على الصِّرم كأنه السبع : وغزا مع النبيّ غزوة بني لِحيان وغزوة ذي قَرَدَ ، وفي السنة السادسة من الهجرة خرج الرسول لغزو بني المصطلق من خزاعة ، لما بلغه أنهم مجتمعون له ، فاستخلف أبا ذر على المدينة ولقيهم بالمُرَيْسِيع من مياههم ، ما بين قديد والساحل ، فتزاخفوا وهزمهم .

ونال أبو ذر الحظوة عند النبيّ ، فكان عليه الصلاة والسلام يبتدئه إذا حضر ، ويتفقده إذا غاب ، وفي يوم أتى أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم ، وعليه ثوب أبيض ، ثم أتاه وقد استيقظ ، فقال الرسول لما رأى أبا ذر : ما من عبد قال لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة .

فقال أبو ذر : وإن زنى وإن سرق ؟

قال الرسول : وإن زنى وإن سرق .

فقال أبو ذر : وإن زنى وإن سرق ؟

قال الرسول مؤكداً : وإن زنى وإن سرق .

فقال أبو ذر مستنكراً : وإن زنى وإن سرق ؟

فقال الرسول : وإن زنى وإن سرق ، على رغم أنف أبي ذر .

وخرجا إلى المسجد ، فلما دخلاه قال النبي لأبي ذر :

— يا أبا ذر ، ارفع رأسك .

فرفع أبو ذر رأسه ، فإذا رجل عليه ثياب جياد . وسارا بضع خطوات ،

فقال الرسول له : ارفع رأسك .

فرفع أبو ذر رأسه ، فإذا رجل عليه ثياب خلقة ، فقال الرسول :

— يا أبا ذر ، هذا عند الله خير من قُراب الأرض مثل هذا .

واستمر أبو ذر يبيت فى مسجد الرسول ، حتى أعرس ، فاتخذ له منزلا ، فدخل عليه رجل ، وجعل يقلب بصره فى بيته ، فلا يجد به شيئا ، فقال له الرجل :

— يا أبا ذر ، أين متاعكم ؟

فقال أبو ذر :

— لنا بيت نوجه إليه صالح متاعنا .

— إنه لا بد لك من متاع ، ما دمت ها هنا .

— إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه .

ونظر أبو ذر إلى الرجل ، وقال :

— والله لو تعلمون ما أعلم ، ما انبسطتم إلى نسائكم ، ولا تقاررتم على فُرُشِكم ، والله لوددت أن الله عزَّ وجلَّ خلقنى يوم خلقنى شجرة تُعْضَد ويؤكل ثمرها .

— أو يمنع هذا من أخذك من الدنيا بنصيب ؟

— قال رسول الله : « يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود ، وهو يسعى لدار الغرور » .

وخرج الرجل ، واتجه أبو ذرّ إلى المسجد ودخل ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده ، فجلس إليه ، فقال الرسول : يا أبا ذر ، إن للمسجد تحية ، وإن تحيته ركعتان ، فقم فاركعهما . فقام وركعهما ، ثم عاد وجلس إليه ، ووجد الفرصة سانحة ليتفقه فى دينه ودنياه ، فقال :

— يا رسول الله ، إنك أمرتنى بالصلاة ، فما الصلاة ؟
— خير موضوع استكثر أو استقل .
— يا رسول الله ، فأى الأعمال أفضل ؟
— إيمان بالله عزّ وجل ، وجهاد فى سبيله .
— فأى المؤمنين أكملهم إيمانا ؟
— أحسنهم خلقا .
— يا رسول الله ، فأى المؤمنين أسلم ؟
— من سلم الناس من لسانه ويده .
— يا رسول الله ، فأى الهجرة أفضل ؟
— من هجر السيئات .
— يا رسول الله ، فأى الصلاة أفضل ؟
— طول القنوت .
— يا رسول الله ، فما الصيام ؟
— فرض مجزىّ ، وعند الله أضعاف كثيرة .
— يا رسول الله ، فأى الجهاد أفضل ؟
— من عُقِر جواده ، وأُهريق دمه .
— يارسول الله ، فأى الرقاب أفضل ؟
— أغلاها ثمنا ، وأنفسها عند ربها .
— يا رسول الله ، فأى الصدقة أفضل ؟
— جُهد من مُقلّ ، يُسَرُّ إلى فقير .
— فأى آية مما أنزل الله عز وجل عليك أعظم ؟
— آية الكرسىّ . يا أبا ذر ، ما السموات السبع مع الكرسىّ إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة .

— كم كتابا أنزل الله ؟

— مئة كتاب وأربعة كتب : أنزل على شيث خمسون صحيفة ، وأنزل على خنوخ ثلاثون صحيفة . وأنزل على إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

— يارسول الله ، فما كانت صحف إبراهيم ؟

— كانت أمثالا كلها : « أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، فإننى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها ولو كانت من كافر » . وكان فيها أمثال : « على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات ، ساعة يناجى فيها ربه عزَّ وجلَّ ، وساعة يحاسب فيها ربه ، وساعة يفكر فيها فى صنع الله عزَّ وجلَّ ، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب ؛ وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو فرقة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيراً لزمانه ، مقبلا على شانه ، حافظا للسانه ؛ ومن حسب كلامه من عمله ، قل كلامه إلا فيما يعنيه » .

— يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟

— كانت عبراً كلها : « عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك . عجبت لمن أيقن بالقدر ، ثم هو ينصب . عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ، ثم اطمأن إليها . عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ، ثم لا يعمل » .

— يا رسول الله ، أوصنى .

— أوصيك بتقوى الله ، فهى رأس الأمر كله .

— يا رسول الله ، زدنى .

— عليك بتلاوة القرآن ، فهو نور لك فى الأرض، وذكر لك فى السماء .

— يا رسول الله زدنى .

— إياك وكثرة الضحك ، فإنه يميت القلب ، و يذهب بنور الوجه .

— يارسول الله زدنى .

— عليك بالصمت إلا من خير ، فإنه مَطْردة للشيطان عنك ، وعون لك على أمر دينك .

— يارسول الله زدنى .

— أحبّ المساكين وجالسهم .

— يارسول الله زدنى .

— انظر إلى من تحتك ، ولاتنظر إلى من فوقك؛ فإنه أجدر أن لاتزدرى نعمة الله عندك .

— يارسول الله زدنى .

— صل قرابتك و إن قطعوك .

— يا رسول الله زدنى .

— لا تخش فى الله لومة لائم .

— يا رسول الله زدنى .

— قل الحق ولو كان مرًّا .

— يارسول الله زدنى .

— يردك عن الناس ما تعرف عن نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتى ، وكفى به عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك ، أو تجد عليهم فيما تأتى .

ثم ضرب بيده على صدر أبى ذر ، وقال :

— يا أبا ذر ، لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسن كحسن الخلق .

إلى مكة

جلس النبي صلى الله عليه وسلم صامتا فى المسجد ، فصمت جميع الجالسين إليه ، حتى لم يعد تسمع فى المسجد لاغية ، وظنوا أن ينزل عليه الوحى ، فأقصروا عنه ، ومر الوقت وكأن على رءوسهم الطير ، حتى جاء أبو ذر ، فاقتحم فجلس إليه ، فأقبل عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

— يا أبا ذر ، هل صليت اليوم ؟

— لا

— قم فصل .

فقام أبو ذر ، وصلَّى أربع ركعات الضحى ، ثم أقبل عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

— يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس .

— يا نبي الله ، أَوَللإنس شياطين ؟

— نعم ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

وسكت النبيّ ، وسكت أبو ذر ، ثم قال صلى الله عليه وسلم :

— يا أبا ذر ، ألا أعلمك كلمات من كنز الجنة ؟

— بلى . جعلنى الله فداءك .

— قل : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

ودخل عمرو بن سالم الخُزاعىّ المسجد ، وأسرع نحو الرسول ، حتى وقف بين يديه ، فقال :

— نقضت قريش عهد الحُدَيبية ، يا رسول الله .

وتجاوبت أصوات فى المسجد تستفسر :

— كيف ؟ كيف ؟

— لقد دخلت قبيلتى خُزاعة فى عهدكم ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش . وتعلمون أن بيننا وبين بنى بكر ثارات وحزازات قديمة ، سكنت بعد صلح الحديبية ، فلما لم تنتصروا على الروم فى مُوءْتة ، خُيِّل إلى القرشيين أنه قضى عليكم ، وأنه لن تقوم لكم قائمة بعد غزوتكم هذه ، فحرضوا بنى بكر علينا ؛ فبينا نحن ذات ليلة على ماء لنا ، إذ فاجأنا بنو بكر ، فقتلوا منا ، فسارعت إليك يا نبى الله ، أستنصرك على من اعتدى علينا .

فقال النبى : نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم !

وأطرق النبى مفكراً ، ورأى أن ماقامت به قريش من نقض عهده ، لا مقابل له إلا فتح مكة .

وأرسل عليه السلام رسله فى أنحاء شبه الجزيرة ، ليكونوا على استعداد لتلبية ندائه .

وراح النبى يستعد ليوم الفتح العظيم ، وفكر فى فتح مكة دون إراقة دماء ، وقلب وجوه الرأى ، فهداه تفكيره إلى أن خير وسيلة لتحقيق ذلك ، أن يبغت القوم فى غرة منهم ، فلا يجدوا له دفعا ، فيسلموا ؛ وجعل الناس يتجهزون للقتال ، لا يعلمون أين وجهتهم .

وخرج النبىّ وأبو ذر معه ، ليُعْلِمَ القومِ أنه سائر إلى مكة ، ليضع يده على البيت الحرام ، الذى جعله الله مباركا وهدى للعالمين . وبينا هما فى الطريق ، مال النبى ، وأخذ بغصنين من شجرة ، فجعل الورق يتهافت ، فقال النبى :

— يا أبا ذر !

— لبيك يا رسول الله !

— إن العبد المسلم ليصلى الصلاة يريد بها وجه الله تعالى ، فتهافتُ عنه ذنو به ، كما يتهافت هذا الورق عن هذه الشجرة .

وسارا حتى بلغا القوم ، فأمرهم الرسول بالجد إلى مكة ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى لا تقف من سيرهم على نبأ .

تحرك جيش المسلمين من المدينة قاصدا مكة فى عدد لا عهد للمدينة به ، وأغذ الجيش السير ، وكان أبو ذر يخدم النبى طوال الطريق ، لا يفترق عنه ولا يتركه . وخرج أبو سفيان يتنطّس الأخبار ، فرأى نيرانا وعسكرا ما رأى مثلها من قبل قطّ ، وقابل العباس عم النبى ، فسأله عن الخبر ، فقال العباس :

— هذا رسول الله فى الناس ، واصباح الناس إذا دخل مكة عَنْوة .

رأى أبو سفيان من جيوش النبى ما أزعجه ، وخشى ما يحل بمكة إذا دهمها هذا الجيش الذى لاقِبَل لها به ، فسأل العباس أن يجيره ، فأركبه العباس فى عجز بغلة النبىّ . وفى الطريق لمح عمر أبا سفيان ، فأسرع إلى خيمة النبىّ ، وطلب إليه أن يضرب عنقه ، ولكن العباس قال : يا رسول الله ، إنى قد أجرته .

فقال رسول الله: اذهب به يا عباس إلى رَحْلك ، فإذا أصبحت فأْتنى به.

وفى الصباح ، دخل كبار المهاجرين والأنصار على النبىّ ، وجىء بأبى سفيان ، فابتدره النبىّ :

— ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

— بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى شيئا بعد .

— ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لكِ أن تعلم أنى رسول الله ؟

— بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . أما هذه فإن فى النفس منها حتى الآنَ لشيئا .

فتوجه العباس إلى أبى سفيان ، وطلب منه أن يُسلم ، قبل أن تضرب عنقه ، فلم يسعه إلا أن يسلم .

وتحركت جيوش المسلمين نحو مكة ، ووقف النبىّ فوق ذى طُوًى ، وتطلع إلى مكة ، فألفاها لا تقاوم ، فخر ساجدا لله رب العالمين . ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة ، فجاء أبو ذر بجفنة فيها ماء ، وكان فى الجفنة أثر العجين ، فستر أبو ذر النبى حتى اغتسل ، ثم ستر النبىّ صلى الله عليه وسلم أبا ذر فاغتسل ، واتجه إلى الكعبة ، فطاف النبىّ سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه ، فتحت الكعبة ، فوقف النبىّ على بابها ، وخطب الناس وسألهم :

— يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

— فاذهبوا فأنتم الطلقاء . .

ودخل الكعبة فجعل يشير إلى الأصنام المنصوبة حولها بقضيب فى يده وهو يقول : (قُل جاءَ الحقُّ وَزَهقَ الباطلُ ، إنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقا) وكُبَّت الأصنام على وجوهها وظهورها ، وهتف أبو ذرّ مع الهاتفين : (قل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا) .

كن أبا ذر

دانت القبائل لمحمد ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، فرفرفت الراية الإسلامية على جزيرة العرب جميعها ، واستعمل رسول الله رجالا على الصدقات، أوفدهم ليجمعوا له عشر إيراد القبائل التى دانت للإسلام ، من غير أن يتعرضوا لأصول أموالها . وجاء الله بالغنى ، وظهرت آثار الغنى على كثير من المسلمين ، فشبعوا بعد مَسْغبة ، واقتنوا الحُلَل ، و بقِى أبو ذر على زهده ، ليس له طعام إلا من شعير .

وفى يوم اتجه أبو ذر إلى الرَّبَذَة ، وأمضى بها رَدَحا من الزمن ، ثم عاد إلى المدينة ، فقصد من فوره النبيّ الحبيب ، وجلس إليه صامتا لا يتكلم ، فقال الرسول : يا أبا ذر .

فسكت أبو ذر ، ولم يحر جوابا .

فقال النبى : ثكلتك أمك !

فقال أبو ذر بصوت خفيض : إنى جُنِبت .

فنادى رسول الله الجارية ، وأمرها بإحضار ماء ، فجاءت به ، فأخذه أبو ذر ، واتجه إلى راحلته ، واستتربها واغتسل ، وعاد إلى حيث كان النبى صلى الله عليه وسلم وجلس ، فقال له النبىّ :

— يجزئك الصعيد و إن لم تجد الماء عشرين سنة ، فإذا وجدت الماء فأمسه جلدك .

وأخذ النبىّ يوصى أبا ذر ، وأبو ذر يسمع له بأذن واعية ، حتى أقبل ابن اللُّتْبِيَّة وهو من الأزد ، كان النبىّ قد استعمله على الصدقة ، فقسم الرجل ما معه قسمين ، وقال للنبىّ :

— هذا لكم ، وهذا أُهدى لى .

فظهر الغضب فى وجه النبىّ ، ولمح أبو ذر ذلك ، فقال للرجل :

— كيف أُهْدِى لك ؟

ووقف النبىّ ، وخطب الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

— أما بعد ، فإنى أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله ، فيأتى أحدكم فيقول : هذا لكم ، وهذه هدية أُهديت لى . فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه ، فينظر أيهدى له أم لا ؟ والذى نفسى بيده لا يأخذ أحد منه شيئا ، إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، إن كان بعيراً له رُغاء ، أو بقَرة لها خُوار ، أو شاة تَيْعَر .

فترك ابن اللتبية ما أهدى إليه ، ولم يمسّه ، فاتجه إليه أبو ذر ، وقال :

— هذا أفضل .

فقال الرجل : ما كنت أدرى . .

وأطرق الرجل ، فقال له أبو ذر : لا تحزن ، واعلم أن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يسعى من لا يقين له .

ثم قال له : اذهب واعتذر للنبىّ .

فقصد ابن اللتبية رسول الله ، واعتذر وطلب العفو ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل — يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم ، ومن علم أنى أقدر على المغفرة ، فاستغفرنى بقدرتى ، غفرت له ولا أبالى ، وكلكم ضال إلا من هَدَيت ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، فاسألونى أغنكم ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحيّكم وميتكم ، ورَطبكم ويابسكم ، اجتمعوا على أشقى قلب من قلوب عبادى ، ما نقص فى ملكى جَناحَ بعوضة ، ولو اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادى ، ما زاد فى ملكى جَناحَ بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وَرطْبكم ويابسكم ،

اجتمعوا ، فسألنى كل سائل منهم ما بلغت أمنيته ، فأعطيت كل سائل منهم ماسأل ، ما نقصنى ، كما لو أن أحدكم مر بشَفة البحر ، فغمس فيها إبرة ثم انتزعها ، كذلك لا ينقص من ملكى ، ذلك بأنى جواد ماجد حمد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إذا أردت شيئا فإنما أقول له كن فيكون » .

ونهض النبىّ وانصرف ، ودار الحديث بين القوم ، وبقى أبو ذر يدير دفة الحديث ، يُمَجّد الزهد ، ويدعو الله ، ويحقِر من هذه الدنيا الفانية ، ويبشر الذين يواسون الفقراء ، وينفقون أموالهم فى سبيل الله ، بجنات عرضها السموات والأرض ، تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك هو الفوز العظيم .

وابتدأ القوم ينصرفون ، وخرج أبو ذر قاصدا داره ، فمر على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ومعه جبريل عليه السلام فى صورةِ دحية الكلبىّ ، فلم يسلم ؛ فقال جبريل :

— هذا أبو ذر ، لو سلم لرددنا عليه .

فقال النبىّ :

— تعرفه ياجبريل ؟

— والذى بعثك بالحق نبيا ، لهو فى ملكوت السماوات السبع ، أشهر منه فى الأرض .

— بمَ نال هذه المنزلة ؟

— بزهده فى هذا الحطام الفانى .

* * *

اتصل بالنبى نبأ من بلاد الروم ، أنها قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وأن لَخْمَ وجُذام وعاملة وغسان ، قد خرجت معه ،

وأن هرقل عازم على غزو شمال شبه الجزيرة ، لينسى الناس ذكر العرب ، وسلطان المسلمين الزاحف فى كل مكان ، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج ، وأعلمهم المكان الذى يريد ، على خلاف عادته ، لطول الشقة بين المدينة وبلاد الشام ، وليتأهب الناس ، ويأخذوا لذلك عُدَّتهم ، وبعث إلى مكة وقبائل العرب يستنفرهم ، وأمرهم بالصدقة ؛ وطلب من أغنياء المسلمين أن يشاركوا فى تجهيز هذا الجيش ، بما آتاهم الله من فضله .

علم أبو ذرّ أن النبى سيخرج إلى تبوك لغزو الروم ، فأراد أن يتجهز ، فاتجه إلى بعيره ، فألفاه أعجف ، لا يقوى على قطع تلك المسافات الشاسعة ، بين المدينة وتَبوك ، فقال فى نفسه : « أعلفه أياما ، ثم أخرج به مع النبىّ عليه الصلاة والسلام » .

كان الحر شديدا ، والسفر طويلا ، فالتمس ضعاف الإيمان الأسباب للبقاء بالمدينة ، وعدم الخروج . وجاء بعض الفقراء إلى المال ، الأغنياء بالإيمان ، الذين لم يجدوا رواحل لهم ، إلى النبى يستحملونه ، فلما قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : لا أجد ما أحملكم عليه ..

« وَلَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَنًا ، ألاّ يجدوا ما ينفقون » .

وأقبل الناس من كل حدب وصوب ، فاجتمع المسلمون بالمدينة ، وجاء أبو ذر على بعيره ، وخرج المؤمنون فى حر شديد ، الرجلان والثلاثة على بعير واحد ، للجهاد فى سبيل الله ، ابتغاء مرضاته ، و بقى المنافقون فى المدينة ، عليهم غضب الله ورسوله .

تحرك الجيش فثار النقع ، وصَهَلت الخيل ، وارتفع رغاء الإبل ، وسارعت النساء ، وارتفعن فوق سقوف دورهن ، ليشهدن جيش الله الجرّار ، المندفع

صوب الشام مخترقاً الفيافى والقِفار ، متجشما الأخطار ، مستهيناً بالحر والظمأ والمَسْغَبة ، فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه .

واستوت الشمس فى كبد السماء ، وارتفعت أشعتها المحرقة ، تشوى وجوه المسلمين ، فتفصّد العرق ، وأحس الناس بضيق شديد ، وكان تبرم ضعاف الإيمان شديدا ، فتخلف كعب بن مالك ، وقفل راجعا إلى المدينة ، فقال أصحاب الرسول للرسول :

— يا رسول الله ، تخلف كعب بنْ مالك .

— دعوه ، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك ، فقد أراحكم الله منه .

وأخذ الجيش يسير ، وأبطأ بعير أبى ذرّ ، وتخلف عن الجيش . فالتفت المسلمون إلى النبى وقالوا :

— يا رسول الله ، تخلف أبو ذر .

— دعوه ، إن يك فيه خير ، فسيُلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك ، فقد أراحكم الله منه .

واستمر الجيش فى زحفه ، وترك أبا ذر خلفه .

هل يتخلف أبو ذر عن النبىّ ؟ وهل يقفل عائدا إلى المدينة ؟

لا . ما كان لأبى ذر أنْ يتخلف عن النبى الحبيب ، وما كان لأبى ذر أن يعود إلى المدينة ، لينضم إلى المنافقين . إنه يشعر بالظمأ ، ويحس أن رقبته ستنقطع ولا ماء معه . لخير له أن يموت ظمآن من أن يعود إلى المدينة . لقد أبطأ به بعيره ، فليزجره ، وليستحثّه على الإسراع ، لعله أن يلحق بالنبىّ ؛ ولكنه لم ير ببعيره حركة ، فماذا يفعل ؟ وإلى أين يتوجه ؟ فليترك بعيره هذا

الذى لحقه البوار ، وليحمل متاعه على ظهره ! وليجدَّ فى السير ، ليلحق بإخوانه الزاحفين الغازين ، أو يموت فى الطريق .

أخذ أبو ذر متاعه فجعله على ظهره ، ثم راح يتبع رسول الله ماشيا ، وأخذ منه التعب والعطش ، ولكن كانت نفسه المؤمنة بالله تشد أزره ، وتلهمه أن بعد الضيق فرجا ، وأن مع العسر يسرا ، فتقوى عزيمته ، وتصبر على الشدائد نفسه ، فيستأنف سيره بعزيمة لا تعرف الخور ، ونفس لا ترضى إلا بلوغ الغرض .

سار جيش المسلمين ترفعه النجاد ، وتحطه الوهاد ، وتلفحه الشمس بأشعتها الحامية . ونفد الماء قبل الوصول إلى اليرموك ، فنزل الجيش منزلا ، وأصاب الناس عطش شديد ، حتى ظنوا أن رقابهم ستنقطع . بحثوا عن الماء فلم يجدوه ، وفكروا فيما يفعلون ، وقلبوا وجوه الرأى ، ولم يستطع كثير من المسلمين الصبر على الظمأ ، فقاموا إلى إبلهم ، وجعلوا ينحرونها ، لينفضوا أكراشها ، ويشربوا ماءها . واشتد ظمأ القوم ، وأخذوا يترنحون من شدة العطش ؛ ورأى أبو بكر أن يتجه إلى الرسول ، يطلب منه أن يدعو الله لهم ، فقصده وقال :

— يا رسول الله ، إن الله قد عودك فى الدعاء خيرا ، فادع الله لنا .

فقال النبي : أتحب ذلك ؟

قال الصديق : نعم .

فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يديه نحو السماء ، وأخذ يدعو ربه ، فلم يرجعهما حتى غامت السماء فأظلت ، ثم سكبت ؛ فدبت الحياة فى المعسكر ، واستقبل المسلمون الغيث فرحين جذلين ، مهللين مكبرين ، وارتووا وملئوا ما معهم ، وشكروا الله كثيرا على ما آتاهم من فضله . وذهب بعضهم ينظر ، فلم يجدوا المطر قد جاوز المعسكر .

ارتوى المسلمون وأصبحوا مبرودى الغليل ، بينا أبو ذرّ يمشى فى الطريق وحده ، لا يجد ما يطفىء به عطشه ، لا يتمنى جرعة ماء بقدر ما يتمنى أن يلقى الرسول الخليل . ولمح أبو ذر معسكر المسلمين ، فأحيا ذلك فيه موات الأمل ، وأحس خفة فى جسمه ما كان يحسها قبل ذلك ، وتمنى أن يكون له جناحان ، يطير بهما إلى الرسول ، فما كان يطيق أن يظن الرسول به الظنون ، أو يحسبه قد قعد مع القاعدين ، أو تخلف مع المتخلفين ؛ فما تخلف أبو ذر ، وما كان لأبى ذر صاحب رسول الله ، أن يتخلف عن الجهاد فى سبيل الله .

ونظر ناظر من المسلمين ، فلمح رجلا قادما ، فقال :

— يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده .

فقال صلى الله عليه وسلم :

— كن أبا ذر .

تأمل القوم الرجل القادم ، ولما اقترب منهم صاحوا :

— يا رسول الله ، هو والله أبو ذر .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

— يرحم الله أبا ذر ؛ يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده .

وخف رسول الله إليه ، ولما قابله شاع السرور فى نفسه ، وقال النبى :

— لقد غفر الله لك يا أبا ذر بكل خطوة ذنبا ، إلى أن لقيتنى .

ومدّ النبىّ يده ، ووضع متاعه عن ظهره ؛ وسقط أبو ذر على الأرض ، من التعب والإعياء والعطش ، ثم استسقى ، فأتى بإناء به ماء .

واستأنف المسلمون زحفهم ، وقدم الرسول إلى تبوك فى ثلاثين ألفا ، والخيل عشرة آلاف فرس ، فأقام بها عشرين ليلة ، يصلى الصلاة ركعتين ، ولم يلق كيدا ، فانصرف ، وقدم إلى المدينة فى شهر رمضان سنة تسع ، فقال :

— الحمد لله على ما رزقنا فى سفرنا هذا من أجر وحِسْبة .

أجاب ربا دعاه

عاد أبو ذر من مكة بعد أن حج مع الرسول حجة الوداع ، مطرقا مفكرا ؛ وجعل يفكر فى خروجه مع النبى من المدينة إلى مكة حاجا ، وفى إتمام النبى مناسك الحج فى حجه هذا ، وفى خطبته الجامعة ؛ وجعل سيال الفكر ينتقل به من مكان إلى مكان ، ورن فى أذنه صوت النبى وهو يرتل « اليومَ أكملتُ لكمْ دينكمْ ، وأتممتُ عليكمْ نعمتى ، ورضيت لكم الإسلامَ دينا » . فوقع فى نفسه حزن ثقيل ، وأيقن أن النبيّ الحبيب قد أتم رسالة ربه ، ولم يبق إلا القليل ليترك هذه الدنيا ، ويلحق بالرفيق الأعلى . برم أبو ذر بهذه الأفكار السود التى تلاحقه ، ولم يطق التفكير فى فراق النبى ، وكيف يطيق الفراق ولم يتفارقا مذ قدم الرسول . ليته يفارق هذه الحياة قبله ، ولكن ما يشاء الله يكون . وأحس رغبة فى لقاء النبىّ ، فنهض وترك الدار وانطلق .

وقف النبى مع أصحابه يتحدث والجميع ينصتون إليه ، وأقبل رجلان من الأنصار فلمحا النبى وأصحابه حوله ، فمال أحدهما على الآخر وقال :

— انظر إلى أصحاب الرسول ، فهم هم على الدوام قلما ينقصون أحدا .

فقال الآخر :

— إنهم رفقاؤه المقربون .

— ألا ترى أنهم ينقصون اليوم واحدا !

— ترى من يكون ؟

وتفرس الرجلان فى أصحاب الرسول ، فقال الأول :

— لا أرى أبا ذر بين القوم .

— لعله ذهب لقضاء حاجة .

— أما لا حظت أن النبي يحبه و يقربه ؟

— أجل فرسول الله صلى الله عليه وسلم يبتدئه إذا حضر ، و يتفقده إذا غاب .

— إنه جدير بهذا الحب ، فهو رجل صالح .

— إن رسول الله يحبه لزهده وتقشفه .

وأقبل بلال على النبي وكان الغضب ظاهرا عليه . فسلم ، ثم قال :

— يا نبي الله ، لقد قامت بينى و بين أبي ذر مشادة الآن ، فقال لى يابن الحمراء .

وأقبل أبو ذر فقال له النبي :

— يا أبا ذر ، بلغنى أنك اليوم عيرت أخاك بأمه .

فقال : نعم .

— يا أبا ذر ، إنك امرؤ فيك جاهلية ، يا أبا ذر ارفع رأسك ، فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود ، إلا أن تفضله بعمل .

فطأطأ أبو ذر رأسه ، وأيقن أنه أساء إلى بلال ، وخشى من غضب النبي صلى الله عليه وسلم ، فاضطجع وقال لبلال :

— قم فطأ على خدّى .

فأسرع بلال إلى أبي ذر ، وسلم عليه ، وعفا عنه . والتزم أبو ذر جانب الصمت ، إلى أن سأله الرسول : لم سب صاحبه ؟ فقال أبو ذر :

— لقد أغضبنى .

فقال النبي : إذا غضبت وكنت قائما فاقعد ، و إن كنت قاعدا فاتكئ .

ودار الحديث بين الجميع ، والتفت الرسول إلى أبي ذر ، وقال :

— ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ، ثقيل فى الميزان ؟

فقال أبو ذر : بلى يا رسول الله .

قال : هو الصمت ، وحسن الخلق ، وترك ما لا يعنيك .

وابتدأ أصحاب الرسول ينصرفون ، فاتجهوا إلى دورهم . وبقى أبو ذر مع الرسول ، فسارا حتى بلغا السوق ، فألفيا الناس منكبين على تجارتهم وبيعهم وشرائهم ، فالتفت الرسول إلى أبى ذر وقال :

— يا أبا ذر ، إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

واستأنفا سيرهما ، والتفت النبى إلى أبى ذر ، وقال :

— يا أباذر ، أنت رجل صالح ، وسيصيبك بلاء بعدى .

— فى الله ؟

— فى الله .

فلم يجزع أبو ذر ، ولم يرتجف ، بل نزل رد الرسول على قلبه بردا وسلاما ، وقال قولة الرجل الصالح :

— مرحبا بأمر الله .

* * *

مرض رسول الله ، واستأذن زوجاته فى البقاء فى بيت عائشة ، فأذنّ له ، وفى صحوة من صحوات مرضه ، طلب من عائشة أن تدعو له أصحابه الذين فى المسجد ، فأرسلت فى طلبهم ، فدخلوا على النبى ، ودخل أبو ذرّ معهم ، فسلموا عليه ، وجلسوا عنده ، فالتفت إليهم وقال :

— مرحبا بكم ، حياكم الله بالسلام ، رحمكم الله ، حفظكم الله ، جبركم الله ، رزقكم الله ، نفعكم الله ، آداكم الله : (قواكم الله) ، وقاكم الله ، أوصيكم بتقوى

الله ، أوصى الله بكم ، أستخلفه عليكم ، وأحذركم الله ، إنى لكم منه نذير مبين ، ألاّ تعلوا على الله فى عباده و بلاده ، فإنه قال لى ولكم : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوًّا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » ، وصمت الرسول ، وصمت الجميع ، ثم قال :

— أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ؟

وصمت ، فشمل السكون المكان ، ثم قال :

— دنا الفراق والمنقلب إلى الله ، و إلى جنة المأوى ، و إلى سدرة المنتهى ، و إلى الرفيق الأعلى ، والكأس الأوفى ، والحظ والعيش المهنى .

فقال أحدهم : يارسول الله ، من يغسلك ؟

فقال : رجال من أهلى ، الأدنى فالأدنى .

فقال آخر : يارسول الله ، ففيم نكفنك ؟

فقال : فى ثيابى هذه إن شئتم ، أو ثياب مصر ، أو فى حلة يمانية .

فقال ثالث : يا رسول الله ، من يصلى عليك ؟

فبان على أبى ذر التأثر ، وغامت عيناه بالدمع ، ولم يستطع كتمان حزنه ، فانفجر باكيا ، فبكى أصحاب الرسول ، وبكى النبى ؛ وخيم على المكان سحابة كثيفة من الحزن ، فقال الرسول :

— مهلا رحمكم الله ، وجزاكم عن نبيكم خيرا ، إذا أنتم غسلتمونى وكفنتمونى ، فضعونى على سريرى هذا ، على شفة قبرى فى بيتى هذا ، ثم اخرجوا عنى ساعة ، فإن أول من يصلى علىّ حبيبى وخليلى جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت معه جنوده من الملائكة بأجمعهم ؛ ثم ادخلوا فوجا فوجا فصلوا علىّ وسلموا تسليما ، ولا تؤذونى بتزكية ولا برنة ، وليبتدئ بالصلاة علىّ رجال أهلى ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعد ، واقرءوا السلام على من غاب

من أصحابي ، واقرءوا السلام على من تبعني على ديني هذا من قومي إلى يوم القيامة .

فقالوا : يا رسول الله ، فمن يدخلك قبرك ؟

فقال : أهلي مع ملائكة كثيرين يرونكم من حيث لا ترونهم .

وصمت الرسول ، وأطرق الجمع فإذا الدار ساكنة سكون الرموس ، ووقع في نفس أبي ذر حزن شديد ، فقد دنا وقت الفراق ، وأحس رغبة في البكاء ، ولكن تحجرت عيناه ، وشعر بغصة في حلقه فطأطأ رأسه وخرج .

* * *

أذَّن بلال للصلاة ، وأقبل المسلمون من كل صوب وحدب إلى مسجد الرسول ، وأمّ أبو بكر الناس ، وابتدأت الصلاة ، وخرج الرسول إلى المسجد معصوب الرأس ، واتجه إلى حيث كان أبو بكر ، فلمح المسلمون النبي ، فسرت فيهم موجة من الفرح ، وانتعشت نفوسهم لرؤياه ، وأحس أبو بكر بحركة بين الصفوف ، فعلم أن النبي قد أقبل ، فتراجع ليخلي للنبي مكانه ، ولكن النبي دفعه بيده ليبقيه ، ووقف يصلي خلفه .

لمح أبو ذر النبي ، فشعر بنشوة من السرور ، وظهر البشر على وجهه ، لإبلال النبي من مرضه ، ولما قضيت الصلاة انجفل الناس إليه ، وجعلوا يسلمون عليه ؛ وأسرع أبو ذر فيمن أسرع للإحاطة به ، لسماع دُرٍّ حديثة ؛ وبقي الناس يتجاذبون أطراف الحديث مع النبي ، حتى دخل داره ، فانصرفوا إلى دورهم .

انصرف أبو ذر قاصدا داره فرحان جذلان ، لإبلال خليله من مرضه ، وما كان أبو ذر يدري أنه لن يراه بعد يومه هذا ، ولو علم ذلك لا نقلب فرحه

ترحا ، وسروره حزنا وغما ، انصرف أبو ذر وهو لا يدرى أن النبي الحبيب ، ما خرج إلا ليعطى كل ذى حق حقه ، إلا ليستعد للقاء ربه ، وما لأحد فى عنقه شيء . انطلق أبو ذر وهو لا يدرى ما سيصيبه من بلاء بعده ، وما سيلاقيه من شدة وكرب ، لاستمساكه بوصيته له بأن يقول الحق ، ولو كان مرا ، وبأن لا يخشى فى الله لومة لائم . انطلق أبو ذر وهو لا يعلم ما يخبئه القدر من مفاجأة فاجعة ؛ وأنى له أن يعلم ما يخبئه الله من أحداث وشدائد ، ليمتحن بها عباده ، وليجزى كلا بما قدمت يداه ، وإن للصابرين لأجرا عظيما .

وقابله فى طريقه إلى داره رجل من أهله ، فسأله أبو ذَرّ :

— إلى أين ؟

— إليك .

— لمــه ؟

— وضعت زوجك طفلة .

فصمت أبو ذر قليلا ، فقال الرجل :

— وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وجهُهُ مُسْوَدًّا وهو كَظِيم .

فقال أبو ذر : حاشا لله . إنما يولدون للموت ، ويعمرون للخراب . ويحرصون على ما يفنَى ، ويتركون ما يبــقَى ، ألاَ حبذا المكروهان : الموت والفقر .

* * *

ارتفع الصياح فى منزل الرســول ، فالتفت الناس إلى الدار مذعورين واجمين ، ووراجوا يتساءلون غير مصدقين : « أمات رسول الله ؟ ! أمات رسول الله ؟ ! » وارتفع صوت فاطمة تردد :

أبتــاه يا أبتــاه ! . . أبتاه
أجاب ربا دعـاه . . . يا أبتاه
إلى جـبريل ننعاه . . . يا أبتاه
جنة الفردوس مأواه . . . يا أبتاه
مِنْ رَبه ما أدناه . . . يا أبتاه

فارتفعت أصوات الناس بالبكاء فى المسجد ، وراح أبو ذرّ يذرُف الدمع الهَتُون ، وجعل بعض الصحابة يتكلمون ، والناس يبكون ، ويموج بعضهم فى بعض ولا يسمعون . وأسرع عمر إلى حيث كان جثمان النبىّ ، وكشف عن وجهه ، فألفاه ساكنا ، فحسبه فى غيبوبة ، فأسرع إلى المسجد ، وراح يخطب الناس :

— إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تُوُفِّى ، و إنه والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران .

وأصبح الناس حيارَى ، أيصدِّقون الناعين أم يكذبونهم ، وكان أبو ذرّ يرجو أن يحقق الله مقالة عمر ، وأن يعود النبىّ ليهلك المنافقين . وأقبل أبو بكر ودخل على النبىّ وغاب قليلا ، ثم عاد ، فألفى عمر لا زال يصخب و يتوعد المنافقين ، فقال أبو بكر :

— على رِسْلك يا عمر !

وأشار للناس فسكتوا ، ينتظرون القول الفصل . فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت ، إن الله يقول : (إنك ميت و إنهم ميتون) ثم تلا :

« وما محمدٌ إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسُل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . . » .

فأجهش عمر بالبكاء ، وأيقن أن رسول الله قد مات ، وصاح أبو ذرّ :

— واخليلاه . . مات رسول الله ، مات الأخ الناصح الشفيق ، مات الجواد الكريم ، مات رسول الله الأمين .

وراح أبو ذرّ يبحث عن سَلْوى فلم يجد إلا فى كلام الله سَلْواه وعَزاءه ، فجعل يرتل . .

« كل شئ هالك إلا وجْهَه ، له الحكم و إليه تُرجَعون » . « كل نفس ذائقة الموت ، و إنما تُوَفَّونَ أجوركم يوم القيامة » .

وسار بخطا ثقيلة حزينة ، وجعل يردد فى نفسه « تُوُفِّيَ رسول ، الله والذى نفسى بيده . رحمةُ الله عليك يا رسولَ الله » .

* * *

خيَّم الحزن على مسجد الرسول ، ووقف عمر وأبو عبيدة وأبو ذر والمسلمون يتحدثون ، وقد خيَّم الأسى على الوجوه ، ودخل علىّ والعباس وأبو بكر الدار ، يُعِدون العُدَّة لجهاز النبىّ ، وأقبل رجل على عمر ، وقال :

— اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، لمبايعة سعد بن عُبادة ، خليفة لرسول الله .

فأرسل عمر إلى أبى بكر أن اخرج إلينا ، وعجب أبو ذرّ لهؤلاء القوم الذين يبايعون رجلا غير علىّ بن أبى طالب ، وغمغم : « إن عليا أحق الناس بها ، فهو أول من صدَّق الرسول ، وابن عمه ، وختَنه على ابنته ، كيف يفكر هولاء القوم فى مبايعة غيره ؟ ! »

وخرج أبو بكر ، فابتدره عمر :

— أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة ، يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عُبادة ؟

فأسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيـــدة ، إلى سقيفة بنى ساعدة .

***

خرج أبو بكر إلى سقيفة بنى ساعدة ، وبقى علىّ والعباس وبعض بنى هاشم ، يشتغلون بإعداد جَهاز النبىّ ، وأحس العباس أن فى الأمر شيئا ، وأن الناس يفـكرون فيمن يخلف رسول الله فالتفت إلى علىّ ، وقال له :

— امدد يدك أبايعْك ، فيقول الناس : عَمُّ رسول الله بايع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يختلف عليك اثنان .

— أو يطمع ياعمُّ فيها طامع غيرى ؟

— ستعلم .

وسمع ضرب على الباب بشدة فقال علىّ :

— مَن ؟

— أبو ذر .

— ما هنالك ؟

— قد بايع الناس لأبى بكر .

ففتح علىّ الباب ، وقال :

— كيف ؟

فقال أبو ذرّ .

— اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، لمبايعة سعد بن عُبادة ، فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة إلى هناك ، وراح أبو بكر يخطب فى الأنصار ، فقال الأنصار : « منا أميرٌ ، ومنكم أمير » فقال أبو بكر : « فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحىّ من قريش ، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء » ، ثم قال عُمر :

« والله لا ترضَى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولـكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مُدْلٍ بباطل ، أو متجانفٌ لإثم ، أو متورّط فى هَلَـكة » .

ثم نادى عمر : « ابسط يدك يا أبا بكر » . و بسط أبو بكر يده ، فبايعه عمر وهو يقول : « ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفة رسول الله . فنحن نبايعك لنبايع خير من أحبّ رسول الله منا جميعا » .
وبايع أبو عبيدة وهو يقول : « إنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدّمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ »

وصمت أبو ذر ، فطأطأ علىّ رأسه ، والتفت إليه العباس ، وقال :

— أما إنى قد أمرتكم فعصيتمونى ، ثم أنشد :

أَمَرْتُهُمُ أَمْرِى بمنعَرَجِ اللِّوَى فلم يستبينُوا النصحَ إلاّ ضُحَى الغَدِ

فقال على : وما العمل ؟

فقال أبو ذر : لأجمعن المِقداد وسلمان ، وعُبادة بن الصامت ، وأبا الهيثم ، وحذيفة وعمارا ، لنرى لنا رأيا .

* * *

وأقبل الليلُ يجرّ رداءه الأسود ، ثم نشره على الـكون ، فحجب كل شىء ، واجتمع أنصار علىّ فى الفضاء المجاور للمسجد ، فقال أبو ذر :

— إن علياً أحق الناس بالخلافة ، فعلينا أن نعيد الأمر شورى بين المهاجرين ، وأن ننقض بيعة السقيفة .

فسأل أحدهم : وكيف ذلك ؟

فقال أبو ذرّ : زعموا للأنصار أنهم أولى بهذا الأمر منهم ، لما كان محمد منهم ، فأعطوهم المَقادة ، وسلموا إليهم الإمارة ، فإذن نحتجّ عليهم بمثل ما احتجوا على الأنصار ، علىّ أولى برسول الله حيا وميتا .

ودارت قداح الرأى بين الجميع ، وأخيرا ، أجمعوا على أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين .

وبرزت شمس اليوم التالى ، فخرج أبو ذر من داره ، وانطلق إلى علىّ فى دار فاطمة بنت رسول الله ، فألفى هناك الزُّبير بن العوَّام ، وعمارا ، والمقداد ، وسلمان ، فانضم إليهم ، وأقبل خالد بن سعيد ، وقال لعلىّ :

— فوالله ما فى الناس أحد أولى بمقام محمد منك .

وبلغ أبا بكر وعمرَ خبرُ اجتماعهم بدار فاطمة ، فنهض عمر فى عصابة ، واتجه إلى دار فاطمة ، وطلب إلى علىّ ومن معه أن يخرجوا فيبايعوا كما بايع الناس ، فأبوا أن يجيبوا دعوته .

وأقبل أبو سفيان وهو يقول :

— أما والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم . يا لَعبد مناف ! فيم أبو بكر من أمركم ؟ أين المستضعفان ؟ (علىّ والعباس) أين الأذلان ؟ .

واتجه إلى علىّ وقال :

— ابسُط يدك أبايعك ، فوالله لو شئت لأملأنها على أبى فُضَيل (أبى بكر) خيلا ورَجْلا .

فامتنع عليه علىّ ، فأنشد :

ولا يقيم على ضيم يُرَادُ بهِ   إلاّ الأذلان عيرُ الحىّ والوَتِدُ
هذا على الخسفِ مربوطٌ برمته   وذا يُشَجُّ فلا يرثِى له أحــدُ

فنظر أبو ذرّ إلى أبي سفيان نظرة كلها غيظ ، فقد كان يعلم أن أبا سفيان ما قال مقالته حبّا فى علىّ ، بل حبّا فى تأليب المسلمين . لقد وجد الفرصة سانحة ، فأسرع ليهتبلها ، وتحركت شفتا علىّ ، فالتفت إليه أبو ذر ، فألفاه يقول ما نزل على قلبه بردا وسلاما :

— طالما غَشَشْتَ الإسلام وأهله ، فما ضررتهم شيئا ، لا حاجة لنا إلى خيلك ورَجْلك .

وأطرق على مفكرا ، ومر الوقت وَئيدا ، وارتفع صوت المؤذن يؤذن :

— الله أكبر ، الله أكبر . . . الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله .

فرفع علىّ رأسه ، والتفت إلى فاطمة ، وقال :

— أتحبين أن يزول هذا النداء من الوجود ؟

— لا .

— إذن ، سأبايع أبا بكر .

خرج علىّ والعباس والزُّبير وأبو ذر والمقداد وعمار وحذيفة ، وانطلقوا إلى حيث كان أبو بكر ، وتقدم الزُّبير ، فقال أبو بكر له :

— ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أردت أن تَشُقَّ عصا المسلمين !

— لا تثريب يا خليفة رسول الله .

ومد أبو بكر يده ، فبايعه الزبير ، ثم دخل علىّ فقال الصديق له :

— ابنَ عم رسول الله صلىّ الله عليه وسلم وخَتَنَه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين .

— لا تثريب يا خليفة رسول الله .

فقام فبايع .

ووقف أبو بكر يخطب فى الناس ، يزهدهم فى دنياهم ، ويدعوهم لأخراهم ، فأرهف أبو ذر أذنيه ، فسمع من خليفة رسول الله قولا عجبا ، سمعه يقول :

— إن الله لا يقبل إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم ، فإنما أخلصتم لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم . وتفكروا فيمن كان قبلكم ، أين كانوا أمس ؟ وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون الذين لهم ذكر القتال والغلبة فى مواطن الحروب ؟ قد تضعضع بهم الدهرُ ، وصاروا رِمَمًا ، وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها ؟ قد بعُدوا ونُسى ذكرهم ، وصاروا كلا شىء ، ألا إن الله عز وجل قد ألقى عليهم التَّبِعات ، وقطع عنهم الشهوات ، ومضوا والأعمال أعمالهم ، والدنيا دنيا غيرهم ، وبُعِثنا خَلَفًا بعْدهم ، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا ، وإن انحدرنا كنا مثلهم ، أين الوضأة الحسنة وجوههم ، المعجبون بشبابهم ؟ صاروا ترابا ، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم . أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلمات القبور . هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم رِكزا ؟ أين من تعرفون من آبائكم وإخوانكم ، قد انتهت بهم آجالهم ، فوردوا على ما قدموا ، فحلوا عليه ، وأقاموا للشقوة أو السعادة بعد الموت . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرا ، ولا يصرف به عنه سوءا ، إلا بطاعته واتباع أمره ، واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما آن لأحدكم أن تُحْسر عنه النار ، ولا تبعد عنه الجنة ؟

استمع أبو ذر الزاهد إلى خطبة الخليفة الزاهد ، فانشرح صدره ، ووقع كلامه فى نفسه موقع الماء من ذى الغُلّة الصادى ، ونزل أبو بكر من على

المنبر، فأسرع أبو ذر إليه ، وبايعه ، وأسرع المسلمون إليه ، ووقفوا يتحدثون إليه ، فقال :

— والله ما كنت حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة ، ولا سألتها الله فى سر ولا علانية .

فقال أحدهم : إن هذا يرضى الله ورسوله .

وقال آخر : لقد ولى الله خيرنا .

أبو بكر

وضع أبو ذرّ خدّه على كفه ، وحمل رأسه بيده ، وأسبل عينيه وراح يفكر فى النبىّ الراحل ، وعاد بأفكاره إلى يوم خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، ، معصوب الرأس ، فى مرضه الأخير ، يخطب الناس قائلا : « أيها الناس أَنفِذوا جيش أُسامة ، إن تَطْعُنوا فى إمارته ، فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبله ، وأيمُ الله إنه لمن أحب الناس إلىّ بعده » . وراح أبو ذر يسأل نفسه : ترى ، هل ينفِذ أبو بكر جيش أسامة لمحاربة قضاعة ؟ وهل يستمع إلى الصحابة الذين يرون استبدال أسامة لصغر سنه ، فهو لم يبلغ العشرين بعد ، بقائد آخر ممن حنكتهم التجارب ؟ ولكن متى كانت السن حائلا للاضطلاع بعظائم الأمور فى الإسلام ؟ ألم يفرح النبىّ بإسلام علىّ بن أبى طالب ، وقال لقريش : هذا خليفتى فيكم ، وكان علىّ يومئذ فى الرابعة عشرة من عمره ؟ ألم يدعُ النبىّ ربه أن يُعِز الإسلام بأحد العمرين ، وكان عمر فى السادسة والعشرين من عمره ؟ ألم يقف سعد بن أبى وقاص يذود عن النبىّ ، ويحارب الكفار ، ويرمى نباله ، حتى بلغ ما رماه فى يوم ألف نَبل ، وكان سعد يومئذ فى السابعة عشرة من عمره ؟ لقد قام الإسلام وانتشر على أكتاف الشباب ، فلم يعترض الناس على أسامة ، مع أن النبى اختاره قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى ؟ لا بد من إنفاذ جيش أسامة ، وسينفذه أبو بكر بإذن الله ، فما أحسب أبا بكر إلا منفذاً وصية نبيه .

وتململ أبو ذر فى جلسته ، ثم استأنف تفكيره ، فعاد به فكره إلى يومَ جلس إلى النبى فى المسجد يستمع إليه ، وهو يوصيه ويعلمه . ثم نهض وخرج واتجه إلى خليفة رسول الله ، فوجد عنده كثيرا من المسلمين ، يطلبون منه

وقف مسير جيش أسامة ، محتجين بأن الأمور قد تبدلت بعد موت الرسول ، ولا يعلم أحـــد ما يستجدّ من الأمور إذا بلغ القبائل خبر موت محمد . انتظر أبو ذرّ رد خليفة رسول الله ، واستعذ أن ينفذ وصية رسول الله له ، بأن يقول الحق ولو كان مرا ، وأن لا يخشى فى الله لومة لائم ، إن لم ينفذ خليفة رسول الله وصية نبيه . ولـكن رد أبى بكر الفصل نزل على قلب أبى ذر بردا وسلاما ، قال الصديق :

— والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت السباع تَخْطَفُنى لأنفذت بعث أسامة ، كما أمر به رسول الله ، ولو لم يبق فى القُرَى غيرى لأنفذتها .

أثلج صدر أبى ذَرّ هـذا القول ، وارتاحت إليه نفسه ، ولـكنه لمح عمر مقبلا ، وكان أبو ذر يعلم أن عمر من المعارضين فى إمارة أسامة على الجيش ، وكان أبو ذر يعلم مكانة عمر من أبى بكر ، فأوجس خيفة ، ولـكن ثقته بأبى بكر لم تتزعزع ، وانتظر ليستمع ما يدور بين الصديقين من حوار ، فطلب عمر وقف مسير جيش أسامة ، فقال أبو بكر :

— لو خطفتنى الـكلاب والذئاب ، لا أرد قضاء قضى به رسول الله .

فخرج أبو ذر مسرورا ، وألفى المسلمين مجتمعين منتظرين سفارة عمر ، فوقف معهم ، فلما عاد عمر اجتمعوا حوله ، وعلموا أن خليفة الرسول قد عقد العزم على إنفاذ جيش أسامة ، فطلبوا من عمر اقتراح إسناد القيادة إلى أمير آخر أقدم سـنا من أسامة ، فلا يليق أن يكون هذا الحدث قائدا فى جيش به خيرة الصحابة ، بل به عمر نفسه جنديا ، فدخل عمر على أبى بكر ، واقترح إسناد القيادة إلى أمير آخر .

سمع أبو بكر هـذا ، فثار وغضب ، ووثب على عُمَر الذى كان الناس يخشونه ويهابونه ، وجذبه من لحيته جذبة شديدة ، وصاح فيه :

ثكلتك أمك وعَدِمتك يابن الخطاب ، استعمله رســول الله ، وتأمرنى أن أنزعه ؟

فانسل عمر من عند أبى بكر رضي الله عنه ، ويعجب كيف ثار أبو بكر الهادئ هذه الثورة ، كيف جذبه هذه الجذبة القوية ، التى أفزعته ، وهزت كيانه .

خرج عمر إلى الناس مذهولا ، ولمح أبو ذر أمارات الذعر على وجه ابن الخطاب ، فعلم كل شىء ، علم أن خليفة رسول الله مستمسك بوصية نبيه ، عامل على تنفيذها ، وهل كان أبو بكر ليخالف النبى بعد موته ، ولم يخالفه قط فى حياته ؟

وأسرع الناس إلى عمر يسألونه : ماذا فعل ؟ فصاح فيهم :

— امضوا ثكلتكم أمهاتكم ، ما لقيت فى سبيلكم من خليفة رسول الله !

فانطلق أبو ذر شاكرا ربه ، أن هيأ للإسلام أبا بكر خليفة لرسوله .

انطلق أبو ذر ليتجهز للخروج فى جيش أسامة .

ونفخ فى البوق . وأقبل المسلمون ليخرجوا فى جيش أسامة ، وأقبل عمر بن الخطاب وأبو ذر والمسلمون ، وأقبل أسامة أمير الجيش معتلياً جواده ؛ ولمح الجميع أبا بكر مقبلا راجلا ، ومن ورائه عبد الرحمن بن عوف يقود دابته ، وهمّ أسامة بأن يترجّل ، فأشار إليه أبو بكر أن يبقى ، فقال أسامة :

— يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن .

— والله لا تنزلن ، والله ولا أركب ، وما على أن أغبّر قدمى فى سبيل الله ساعة . فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبع مئة حسنة تكسب له ، وسبع مئة درجة ترفع له ، وأن ترفع عنه سبع مئة خطيئة .

وأيقن أبو ذر أن خليفة رسول الله ما فعل ذلك إلا ليلقن الجنود الذين تحت إمرة أسامة درسا فى احترام القائد ، فمن ذا الذى يجرؤ بعد أن يرى توقير أبى بكر لأسامة أن يتطاول عليه أو يعصى له أمرا ؟ !

وقال أبو بكر لأسامة : ياأسامة اصنع ما أمرك به نبى الله ، ابدأ ببلاد قضاعة ، ثم ائت إبل ، ولا تقصرن من شىء من أمر رسول الله ، ولا تعجلن لما خلفت من عهده .

— سمعا وطاعة .

ثم قال أبو بكر : إن رأيت أن تعيننى بعمر ، فافعل .

يالله ! أبو بكر خليفة رسول الله الآمر الناهى ، لا يأمر ببقاء عمر ، بل يستأذن قائد الجيش ورئيسه المباشر فى إبقائه ليعينه على أمور المسلمين ؟ ياللدرس النافع الذى ألقاه خليفة رسول الله على كبار الصحابة الذين كانوا جنودا فى جيش أسامة . أيستطيع أحدهم أن يعصى له أمرا ، أو أن يستخف به بعد ذلك ؟ لا والله.

فأشار أسامة لعمر بن الخطاب ، فخرج من بين الصفوف ، وأشار أبو بكر لجيش أسامة بيده ، وقال :

— اندفعوا باسم الله .

انطلق جيش أسامة قاصدا الشمال ليقتص لمقتل أبيه زيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة .

وكان الجيش كلما مرَّ بحىّ من أحياء العرب رَعَبه وأفزعه ، وكان الناس يقولون كلما رأوا جيش أسامة :

— ما خرج هؤلاء بين قوم إلا وبهم منعة شديدة .

واستمر الجيش فى زحفه حتى بلغ بلاد قضاعة ، فأخضعها ، وقام بها سبعين يوما ، وكان أسامة عند ظن النبىّ به ، فنجحت الحملة ، وجمع أسامة الغنائم ، وقفل عائدا منتصرا إلى المدينة ، ولم يفقد من جيشه جنديا واحدا .

قفل الجيش عائدا إلى المدينة ، ولما بلغها ألقى على أنقابها حراسا يقيمون بالجيوش حولها . فسأل المسلمون القادمون عن الخبر ، فعلموا أن كثيرا من الأعراب ارتدوا عن دينهم بعد موت محمد ، ورفضوا تأدية الزكاة ، وطمعوا فى المدينة ، واستخفوا بها بعد خروج جيش أسامة ، فأغاروا عليها ، ولكن أبا بكر صَمَد لهم ، وخرج لقتالهم ، وعين علىّ بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عُبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود حرّاسا على المدينة ، فانضم جيش أسامة إلى المسلمين ، و بقى بالمدينة يحميها ، وانطلق الآخرون لقتال المرتدين ، وقاتلوهم حتى انتصروا عليهم ، وأعادوهم إلى دين الله ، وأجبروهم على تأدية الزكاة .

استمر أبو ذر طوال خلافة أبى بكر مجاهداً مع المجاهدين ، غازياً مع الغازين لفتح الأمصار ، وتأسيس إمبراطورية الإسلام ، و بقى أبو ذر على زهده وتقشفه ، ولم ينكر على أبى بكر شيئاً ، فقد كان أبو بكر الزاهد الأول فى الدولة ، و بقى على ما تركه النبى عليه ، ولقد كانت خلافته كفاحاً كلها لاستتباب الإسلام وتمكينه ، فلم تتهيأ للصحابة الفرص للتبدل ، وترك زهدهم وتقشفهم ، و إقبالهم على الدنيا ، كما تهيأ لهم ذلك فى خلافة عثمان ، فلم يظهر أبو ذر الزاهد فى هذه الحقبة من الزمن على باقى الصحابة ، ولم يتميز عنهم بزهده وتقشفه وإعراضه عن الدنيا وزخرفها ، كما ظهر ذلك واضحاً فى عهد عثمان ، لأن تعاليم النبى وأبى بكر كانت لا تزال متغلغلة فى النفوس ، ولأن زهد أبى بكر كان زهدا يحتذى به ، ولأن الأموال لم تكن بعد قد تدفقت على المدينة ، كما تدفقت فى عهد عمر وعثمان .

قفل الفتنة

مرض أبو بكر مرض الوفاة ، وقبل أن يسلم روحه ، كتب عهده لعمر . و بلغ أبا ذر خبرُ موت أبى بكر ، فحزن عليه ، واتجه إلى داره فرأى عليا واقفا على بابه ، يرثيه بخطبة بليغة ، وصف فيها أبا بكر خير وصف . قال على :

— رحمك الله يا أبا بكر ، كنت والله أول القوم إسلاما ، وأخلصهم إيمانا ، وأشدهم يقينا ، وأعظمهم عناء ، وأحفظهم على رسول الله ، وأحدَبهم على الإسلام ، وأحناهم على أهله ، وأشبههم برسول الله خَلقا وخُلقا ، وهديا وسمتا ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله خيرا .

صدّقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وأسماك الله فى كتابه صديقا (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) ؛ تريد محمدا ويريدك ، وكنت والله للإسلام حصنا ، وعلى الكافرين عذابا ، لم تفلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كنت كالجبل الذى لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كما قال رسول الله : ضعيفاً فى بدنك قويا فى الله ، متواضعا فى نفسك عظيما عند الله ، جليلا فى الأرض كبيرا عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك مطمع ، ولا لأحد عندك هوادة ، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك .

و بقى أبو ذر بعد موت الخليفة الصديق بضعة أيام فى المدينة ، ثم حمل زوجه وابنته وانطلق بهما إلى الشام .

وفى يوم جلس فى المسجد ، وجلس الناس إليه ، ودار الحديث بينهم ، فقال أحدهم :

— يا أبا ذر ألا تتخذ ضيعة كما أتخذ أبو هريرة ، فقد أصبح واليا على البحرين ؟

فقال أبو ذر : وما أصنع بأن أكون أميرا ؟ وإنما يكفينى كلَّ يوم شربة ماء أو لبن ، وفى الجمعة قفيز (كيلة) من قمح .

فقال الآخر : أما بلغكم ما صنع أمير المؤمنين عمر بأبى هريرة ؟

فقالوا : لا .

فقال : لقد أحصى عمر ثروته ، وقال له : « استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين ، ثم بلغنى أنك ابتعت أفراساً بألف دينار وست مئة دينار » .

فقال أبو هريرة : « كانت لنا أفراس تناتجت ، وعطايا تلاحقت » . فقال له عمر : « قد حَسَبت لك رزقك ومؤنتك ، وهذا فضل فأده » . فقال أبو هريرة : « ليس لك » . قال عمر : « بلى والله أُوجِع ظهرك » . ثم قام إليه بالدِّرة ، فضربه حتى أدماه ، ثم قال له : « ائت بها » . قال أبو هريرة : « احتسبتها لله » . فقال عمر : « ذلك لو أخذتها من حلال ، وأديتها طائعا . أجئت من أقصى حجر البحرين تجبى الناس لك ، لا لله ولا للمسلمين ؟ ما رجعت بك أميمة (أم أبى هريرة) ، إلا لرعية الحُمُر » .

فقال أبو ذر : لقد فعل عمر ما يرضى الله ورسوله ، فعلى الوالى أن يعمل لمصالح الرعية لا لمصالحه .

ودار الحديث بين القوم ، وأقبل رسول من قبل حبيبة بن مسلمة ، وهو أمير بالشام يسأل عن أبى ذر ، فوجده فى المسجد ، فدخل عليه ، وقال :

— قد بعثنى مولاى إليك بثلاث مئة دينار ، لتستعين بها على حاجتك ..

فقال أبو ذر : قم بها إليه ، أوَ ما وجد أحدا أعز بالله عز وجل منا . ما لنا إلا ظل نتوارى به ، وثلة من غنم تروح علينا ، ومولاة لنا تصدّقت علينا .

أخذ أبو ذرة عطاءه، فخرج مع عبدالله بن الصامت، واستصحب معه جارية، واتجه الجميع إلى السوق ، فجعلت الجارية تقضى حوائج أبى ذر ، و بقى معها بعض الفلوس، فناولتها إياه ، فجعل أبو ذر ينفقها . فقال له عبد الله بن الصامت :

— لو ادخرتها لحاجة بيتك ، وللضيف ينزل بك .

— إن خليلى عهد إلىّ أن أيما ذهب أو فضة أوكىء عليه ، فهو جمر على صاحبه ، حتى يفرغه فى سبيل الله .

***

رحل عمر إلى الشام ليتفقد حال الرعية ، وليستمع لأصحاب الحوائج والشكايات ، وليرى مبلغ ما يؤديه الولاة للناس من خدمة ، فما بعث عمر الولاة إلى الناس ليضربوا أبشارهم ، و يأخذوا أموالهم ، ولكن ليعلموهم و يخدموهم ، و بلغ عمر الشام ، ففرح الناس بلقائه فرحا شديدا ، وأقبلوا عليه مسلمين ، ولمح عمر أبا ذر ، فأخذ بيده فعصرها .

فقال أبو ذر : دع يدى ، يا قفل الفتنة .

فقال عمر : يا أبا ذر ، ماقفل الفتنة ؟.

فقال أبو ذر : جئتَ يوما ونحن عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فكرهت أن تتخطى رقاب الناس ، فجلست فى أدبارهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم » . وأشار صلى الله عليه وسلم إليك .

واستمر أبو ذر ملازما لعمر ، وفى يوم لاحظ أبو ذر إطراق عمر ، فقال له :

— مالى أراك كئيبا حزينا ؟

— استعملت بشرا على صدقات هوازن ، فتخلف بشر . فلقيته فقلت له : «ماخلفك، أما لنا سمع وطاعة ؟» فقال : « بلى ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ولى شيئا من أمر المسلمين يأتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم ، فإن كان محسنا نجا ، و إن كان مسيئا انخرق به الجسر ، فهوى فيه سبعين خريفا » .

فقال أبو ذرّ : أو ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال : لا .

فقال أبو ذر : أشهد أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ولى أحدا من الناس أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم ، فإن كان محسنا نجا ، وإن كان مسيئا انخرق به الجسر ، فهوى فيه سبعين خريفا ، وهى سوداء مظلمة » . فأى الحديثين أوجع لقلبك .

قال عمر : كلاهما قد أوجع قلبى ، فمن يأخذها (أى الخلافة) بما فيها ؟

فقال أبو ذر : من سَلَتَ الله أنفه (أى جدعه) ، وألصق خده بالأرض ، أما إنا لا نعلم إلا خيرا ، وعسى إن وليتها من لا يعدل فيها أن لا تنجو من إثمها .

وانطلق عمر يجوب الشام ، يفتش على الأعمال ، ويحاسب الولاة ، ويواسى الفقراء ، ووقف فى المسلمين يخطب :

« ألا إنى قد وُليت عليكم ، وقضيت الذى على فى الذى ولانى الله من أمركم ، إن شاء الله قسّطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا ما لديكم ، فجندنا لكم الجنود ، وهيأنا لكم الفروج ، وبوأناكم ، ووسعنا عليكم ما بلغ فيئكم ، وما قاتلتم عليه من شأمكم ؟ فمن علم علم شىء ينبغى العمل به ، فليبلغنا نعمل به إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله » .

وطلب الناس من عمر أن يأمر بلالا بالأذان ، فإنه لم يؤذن لأحد بعد رسول الله ، وأنهم فى اشتياق لسماع صوته الندى . فالتفت عمر إلى بلال وقال له : « أذنْ يا بلال » . فقام فأذن فى الناس بصوته القوى الحنون ، الذى طالما سرى فى المدينة على عهد الرسول ، فأطرق أبو ذر ، وانتقل به سيال الفكر إلى يثرب ، فرأى بعين خياله النبى وأصحابه حوله ، فهاجت ذكرياته ، وسالت عبراته ، وبكى عمر لذكرى النبى الحبيب ، حتى بل لحيته .

أبو ذر المحدث

كلف الفقراء بأبى ذر لزهده وتقشفه ، وأصبحوا يجتمعون عنده ، و يجلسون إليه ، يستمعون إلى أحاديث النبىّ وأبى بكر ، وكان أبو ذر محدثا من الطراز الأول ، وكان يمتاز بفصاحة لسانه العربىّ ، وكان مثالا للمسلم التقىّ ، فأصبح قبلة الناس كافة . وفى يوم من الأيام جلس فى المسجد ، والتف به الناس ، وجعل يحدثهم عن النبى كعادته ، فقال أحدهم :

— يا ليتنى رأيت النبىّ .

فقال أبو ذر : قال رسول الله : «أشد أمتى لى حباً قوم يكونون بعدى ، يود أحدهم أنه فقد أهله وماله وأنه رآنى » .

واستأنف أبو ذر حديثه ، فتحدث عن الإسراء ، فسأل أحدُهم :

— وكيف أُسْرى بالنبى ؟

فقال أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فُرج عن سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ، ففرج صدرى ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطَسْت من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا ، فأفرغه فى صدرى ، ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدى ، فعرج بى إلى السماء الدنيا ، فلما جئت إلى السماء الدنيا ، قال جبريل لخازن السماء « افتح » قال « من هذا ؟ » قال « جبريل » قال « هل معك أحد ؟ » قال « نعم ، معى محمد صلى الله وسلم » فقال « أرسل إليه ؟ » قال « نعم » فلما فتح علونا السماء الدنيا ، فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة (جمع سواد وهو الشخص) وعلى يساره أسودة ، إذا نظر قِبل يمينه ضحك ، و إذا نظر قِبل يساره بكى ، فقال « مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح »

قلت لجبريل « من هذا ؟ » ، قال « آدم ، وهذه الأسـودة عن يمينه وشماله نسم بنيه (أرواح أبنائه) فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التى عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، و إذا نظر قبل شماله بكى » .

ونظر أبو ذر ، فرأى رجلا غريبا ما رآه قبل يومه هذا ، فسأله :

— من أنت ؟

— نافع الطاحى .

— وممن أنت ؟

— من أهل العراق .

— أتعرف عبد الله بن عامر ؟

— نعم .

— فإنه كان يتقرأ معى و يلزمنى ، ثم طلب الإمارة ، فإذا قدمت البصرة فتراءَ له فإنه سيقول : لك حاجة ؟ فقل له : أنا رسول أبى ذر إليك ، هو يقرئك السلام ، ويقول لك : إنا نأكل من التمر ، ونشرب من الماء ، ونعيش كما تعيش .

وأقبل أحد أصدقاء أبى ذر ، فسلم وجلس ، فقال له أبو ذر :

— متى عدت من المدينة ؟

— اليوم .

— وما عندك ؟

— سمع عمر بعودة أبى سفيان من عند ولده معاوية ، فوقع فى نفس عمر أن معاوية قد زوّد والده فى عودته بمال . وجاء أبو سفيان مسلما ، فقال له عمر : « أجزنا يا أبا سفيان » فقال : « ما أصبنا شيئا فنجزيك » فمد عمر يده ، ونزع خاتما من أصبع أبى سفيان ، و بعثه إلى هند زوجه ، وأمر الرسول أن

يقول لها باسم زوجها : انظرى الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما » فما لبث أن عاذ الرسول بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر فى بيت المال .

فقال أبو ذرّ : والله إنى لأعجب لهؤلاء الصحابة الذين يتكالبون على الدنيا ، ويقيمون للذهب والفضة وزنا، بعد أن سمعوا رسول الله يقول : « ما لى وللدنيا ، ما مَثَلى ومَثَل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها » .

فقال أحد الحاضرين : قال الله تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .

فقال أبو ذر : يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود ، وهو يسعى لدار الغرور ، ما لنا وزينة الحياة الدنيا ؟ فقد قال سبحانه وتعالى : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

* * *

بلغ نافع الطاحى البصرة ، واتجه من فوره إلى دار الوالى عبد الله بن عامر ، ودخل عليه وسلم ، فسأله عبد الله عن حاجته ، فقال نافع :

— كنت بالشام ، وقابلت أبا ذر ، وقد بعثنى رسولا إليك .

فلما سمع عبد الله بن عامر اسم أبى ذر ، خشع قلبه ، فقال نافع :

— وهو يقرئك السلام ، ويقول لك إنه يأكل من التمر ، ويشرب من الماء ، ويعيش كما تعيش .

فلما سمع عبد الله بن عامر مقالة الرّجل ، بان عليه التأثر ، فحل أزراره ، ثم أدخل رأسه فى جيبه ، ثم بكى حتى ملأ جيبه بالبكاء .

الثــــائر

بلغ الشام أن أبا لؤلؤة ، أحد الموالى الذين قدموا من الـكوفة إلى المدينة طعن عمر فى أثناء تكبيره للصلاة فقتله ، وأن عمر ترك الأمر شورى بين علىّ وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير ، وطلحة . فقال أبو ذرّ فى نفسه : « إنها لعلىّ ، والله ما أحد أحق بالخلافة منه » وعقد العزم على أن يرحل إلى يثرب ، ليـكون بجوار صديقه ، كما كان بجوار النبىّ الحبيب .

وحمل أبو ذر زوجته وابنته ، ولحق بالقافلة المنطلقة إلى يثرب ، وراح طوال الطريق يفكر فى علىّ ، وما سينال المسلمون من العدل على يديه ، فيطمئن قلبه ، ويشيع الرضا فى نفسه . وفى الطريق تقابلت القافلة بأخرى ، قادمة من يثرب إلى الشام ، فعلم أبو ذر أن عثمان بن عفان اختير خليفة للمسلمين ، فأطرق واكتأب وغمغم : « عثمان بن عفان رجل صالح ما فى ذلك شك ، ولـكنه ليس من القدرة والعزم والحزم بحيث يخلُف عمر ، أو يمـلأ الفراغ الذى تركه عمر » .

وراحت القافلة تخب خبا حتى دخلت يثرب ، فاتجه أبو ذر إلى على ، وسلم عليه ، وجلس ودار الحديث بينهما ، فعلم أبو ذر كيف اختير عثمان ، وكيف كان على متهاونا فى حقوقه ، فالتفت إليه وقال :

— إنها مشيئة الله ، ولا رادّ لمشيئته .

وبقى أبو ذر بالمدينة ، ورأى ميل عثمان إلى بنى أمية ، وتغلغل نفوذهم فى الدولة الإسلامية ، وانقلاب الحـكم فى عهده ملـكا له مظاهر الملك :

من عظمة ، وترف ، وتهافت على الدنيا ، ورأى كثيرا من الصحابة يتغيرون ، فالزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف اقتنوا الضياع والدور ، وابتنى سعد ابن أبى وقاص داره بالعقيق ، فرفع سمكها ، ووسع فضاءها ، وجعل أعلاها شرفات ، فقام أبو ذر لا يخشى خليفة ، ولا يهاب أميرا ، يدعو الناس إلى الزهد ويهاجم عثمان .

وفى يوم علم أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية، والحارث ابن أبى العاص ثلاث مئة ألف درهم ، وزيد بن ثابت مئة ألف درهم ، فجلس فى المسجد وراح يتلو : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » . وبلغ مروان أن أبا ذر يهاجمه ويهاجم عثمان ، فرفع ذلك إلى عثمان أمير المؤمنين ، فنادى مولاه نائلا ، وأمره أن يدعو أبا ذر إليه .

دخل أبو ذر على عثمان ، الذى ما كاد بصره يقع عليه حتى قال :

— يا أبا ذر ، انته عما يبلغنى عنك .

— وما بلغك عنى يا أمير المؤمنين ؟

— بلغنى أنك تحرض الناس على .

— وكيف ذلك ؟

— إنك لا تقرأ فى المسجد إلا « والذين يكنزون الذهب والفضة » .

— أينهانى عثمان عن قراءة كتاب الله ، وعيب من ترك أمر الله ؟ فوالله لأن أرضى الله بسخط عثمان ، أحب إلى وخير لى من أن أسخط الله برضاه .

فبان الغضب على وجه عثمان ، ولكنه لم يدر بما يرد عليه ، فلزم الصمت ، وطال صمته ، فخرج أبو ذر من عنده وهو أكثر عزما على عيب من ترك أمر الله .

وتقابل أبو ذر وعلى كثيرا ، وازدادت مهاجمة أبى ذر لعثمان ، فأحفظ

ذلك الخليفة ، وراح ينتهز الفرصة ، ليبعد أبا ذر ، وواتته الفرصة المرتقبة ، فاهتبلها ولم يدعها تفلت ، ففي يوم من الأيام دخل أبو ذر على عثمان ، وكان كعب الأحبار ، وكان يهوديًا ثم أسلم ، جالسا عنده . فسلم عليهما وجلس ، ودار الحديث بينهم ، وقال عثمان لصاحبه وهو يحاوره :

— أيجوز للإمام أن يأخذ من المال ، فإذا أيسر قضى ؟

فقال أبو ذر :

— لا يجوز .

فقال كعب الأحبار :

— لا بأس بذلك .

فالتفت أبو ذر إلى كعب ، وقال :

— يا بن اليهودية ، أتعلمنا ديننا ؟

فالتفت كعب إلى عثمان ، فقال عثمان :

— قد كثر أذاك لى ، وتولعك بأصحابى .

وارتفع الجدل بينهما واشتد ، فقال عثمان محنقا :

— الحق بالشام .

الاشـــتراكى

بلغ أبو ذر الشام ، وكان معاوية يبنى الخضراء ، وآلاف العمال يحملون مواد البناء ، يروحون ويغدون ، ووقف معاوية يتطلع إلى الخضراء مزهوا ، ولمحه أبو ذر ، فاتجه إليه ، وقال :

— يا معاوية ، إن كانت هذه هى من مال الله ، فهى الخيانة ، وإن كانت من مالك ، فهى الإسراف .

فأشاح معاوية بوجهه ، ولم يرد عليه ، فاستأنف أبو ذر سيره ، وبلغ المسجد فجلس ، وأقبل بعض نفر من المسلمين يشكون معاوية لأبى ذر ، ويخبرونه أنه قد انقضى الحول ولم يعطهم عطاءهم ، فأطرق أبو ذر قليلا ، ثم نهض ، فتطلع إليه الناس ، فقال :

— لقد حدثت أعمال ما أعرفها ، والله ما هى فى كتاب الله ، ولا سنة نبيه ، والله إنى لأرى حقاً يطفأ ، وباطلا يحيا ، وصادقا مكذباً ، وأثرة بغير تقى .

يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تُكْوَى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . يا كانز المال ، اعلم أن فى المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت ، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم ، وأنت الثالث ، إن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن ، إن الله عز وجل يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . يا كانز المال . ألا تعلم أنه إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ؟ قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ربى عرض علىّ أن يجعل بطحاء مكة ذهباً ، فقلت

لا يارب ، ولكن أجوع يوما وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه ، فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه ، فأحمدك وأثنى عليك » .

اتخذتم ستور الحرير ونضائد الديباج ، وتألمتم الاضطجاع على الصوف الأذربى ، (المنسوب إلى أذربيجان) وكان رسول الله ينام على الحصير ، واختلف عليكم بألوان الطعام ، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير .

يا كانز المال ألا تعلم أنه ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا ؟

استمع الناس إليه ، فولع الفقراء به ، وأوجس الأغنياء منه خيفة .

* * *

شاهد جندب بن مسلمة الفهرى التفاف الناس حول أبى ذر ، فتمتم قائلا : « إنها الفتنة الكبرى » وانطلق إلى معاوية حتى أتاه ، فأخبره ، وقال له :

— إن أبا ذر مفسد عليكم الشام ، فتدارك أهله إن كان لكم حاجة فيه . فأطرق معاوية يفكر ، أيأخذه بالشدة ؟ لا . إن ذلك مما يزيد النار لهيبا . أيشكوه إلى عثمان ؟ ولكن ما يقول عثمان ، عجز عن تقويم أحد رعاياه ؟ الخير له أن يبعده عن الشام ، وأن يبعثه فى إحدى الغزوات ، فما أحب الغزو فى سبيل الله إلى نفسه . واطمأن معاوية إلى ذلك فأرسل إليه ، فجاء ووجد عند معاوية أبا الدرداء . وشداد بن أوس ، وعبادة بن الصامت ، فانضم إليهم ، وقال معاوية :

— لقد كتبت إلى عمر — رحمه الله — فى شأن فتح قبرص ، وقلت له : إن قرية من قرى حمص يستمع أهلها نباح كلاب قبرص ، وصياح دجاجهم ، وهونت عليه الأمر ، ولكن عمر — رحمه الله — كتب إلى عمرو بن العاص :

«صف لى البحر وراكبه» . فكتب إليه : «هو خلق كبير يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد أقلق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ؛ وراكبه دود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » . فكتب عمر إلىّ : « والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا » . ولقد عدت الآن وألححت على عثمان فى فتح قبرص ، فأجابنى على خيار الناس وطوعهم ، والأمر الآن لكم ، فاختاروا ما ترون .

فقال أبو ذر : رباط يوم فى سبيل الله ، خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل ، لقد دعينا إلى الجهاد فى سبيل الله ، فما علينا إلا تلبية النداء .

ووافق على الغزو بعض الصحابة الموجودين ، فاستعمل عليهم معاوية عبد الله بن قيس حليف بنى فزارة .

وأعدت المراكب وصعد أبو ذرّ إلى مركبه ، وأمر القائد بالسير ، فراحت المجاذيف تعمل ، وتحرك الأسطول الإسلامى للغزو .

* * *

انطلق الأسطول ولما حل من البحر بين السحر والنحر ، صفرت الرياح ثم زأرت ، فجعل الموج يصفق لسماع أصواتها فيطرب ويضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد ويقترب ، فأشرفت نفوس المسلمين على التلف من خوفها واعتلالها ، وتراءى لهم المنون ، وخرست من القلق ألسنتهم . ولما هدأ البحر من ثورته ، وبش بعد حدته ، وجد أبو ذرّ لسانه فجعل يتلو :

« وإذا مسكم الضرّ فى البحر ضلّ من تدعون إلا إياه » .

وقضى الله بالنجاة ، فبلغ الأسطول قبرص ، ونزل بها ، ودارت معركة

بين الغزاة والقبرصيين ، فتقارعت السيوف ، وراح المسلمون يحاربون كأسود كواسر ، فلم يسع أهل قبرص إلا التسليم ، ودفع الجزية للمسلمين .

تم فتح قبرص ، فلم يعد هنالك حاجة لبقاء أبى ذر بها ، فعاد إلى الشام ، ليقلق معاوية ، وليقض مضاجع الأغنياء .

وعلم ابن سبأ ، وكان يلقب بابن السوداء ، وكان قد ورد إلى الشام من المدينة ، وكان يهوديا ثم أسلم ؛ علم أن أبا ذر عاد إلى الشام فمشى إليه ، وكان ابن سبأ ، يدعو لأهل البيت ، ويعمل على تحريض الناس على عثمان وعماله ، فلما قابل أبا ذر عمل على إيغار صدره على معاوية ، فقال له :

— يا أبا ذر ، ألا تعجب من معاوية ، يقول المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون الناس ، ويمحو اسم المسلمين ؟

فقال أبو ذر :

— أو قد قال ذلك ؟

— أجل : إنه يقول ذلك فى كل خطبة .

— والله لأَعْتِبَنَّ عليه .

ونهض أبو ذر من فوره إلى قصر معاوية ، وطلب الإذن بالدخول ، ولما دخل ، هشّ له وبشّ ، ولكن أبا ذر لم يلتفت إلى كل ذلك ، بل اندفع إلى غرضه ، قال :

— يا معاوية ، ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟

— يرحمك الله يا أبا ذرّ . . . ألسنا عباد الله ؟ والمال ماله ؟

— فلا تقله .

— سأقول مال المسلمين .

وهم أبو ذرّ بالانصراف ، فقال معاوية :

— يا أبا ذر ، ما الذى أوجدك علينا ؟

— إن أموال الفىء من حقوق المسلمين ، وليس لك أن تختزن منها شيئا ، ولكنك خالفت الرسول وأبا بكر وعمر ، وكنزتها لك ولبنى أمية .

— يا أبا ذر ، إنى لا أكنز المال كما تظن ، ولكنى أدخره لأصرفه فى وجوه المصالح العامة ، و إنى لا أبخل بالمال على المسلمين ، فما تركت من سبيل يجب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها .

— إنك لا تريد بعطاياك وجه الله ، بل تريد أن يقال إنك جواد ، وقد قيل . يا معاوية لقد أغنيت الغنىّ ، وأفقرت الفقير .

— يا أبا ذر ، ارجع عما أنت فيه ، فإنك تقود الناس إلى فتنة لا يعلم إلا علام الغيوب مداها .

— والذى نفسى بيده ، لا أرجع حتى يبذل الأغنياء المعروف .

ثم ولاه ظهره وخرج ، وأطرق معاويه قليلا ، ثم راح يذرع الحجرة ذهابا و إيابا ، ثم أمر بإحضار صُرة بها ثلاث مئة دينار ، ونادى أحد خدمه ، وأمره أن يلحق بأبى ذر ، وأن يعطيه الصرة . فأسرع الخادم خلفه ، ولما لحق به فى الطريق ، قال له :

— إن معاوية بعث إليك بهذه .

فنظر أبو ذر إلى اليد الممدودة بالصرة ، وقال :

— إن كانت هذه من عطائى الذى حرَمتمونيه عامى هذا قبلتها ، و إن كانت صلة فلا حاجة لى فيها .

وظل الخادم واقفا والصرة فى يده ، فقال أبو ذر :

— ردها عليه ، لا حاجة لى فيها .

وانطلق حتى بلغ المسجد ، فانجفل الناس إليه ، فقال :

— يا معشر الأغنياء ، أنفقوا مما أعطاكم الله ، ولا تغرنكم الحياة الدنيا ؛ واجعلوا فى أموالكم حقا للسائل والمحروم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مال إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ؟ » يا معشر الأغنياء لقد نهى الله عزّ وجلّ عن الكنوز ، وقال رسول الله : « تبا للذهب ! تبا للفضة ! تبا للذهب ! تبا للفضة ! » فشق ذلك على أصحابه ، كما شق ذلك عليكم ، فقالوا : «فأى مال نتخذ؟» فقال لهم عمر رحمة الله عليه : «أنا أعلم لكم ذلك» ، فدخل على رسول الله ، وقال له : « إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا فأى المال نتخذ ؟ » فقال النبىّ الحبيب : « لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وزوجة تعين أحدكم على دينه » .

. . .

إن أموال الفىء من حقوق المسلمين ، ولكن معاوية قد احتجنها ، ليصرفها على خدمه وحراسه وأبهته ، ونسى معاوية أنه لا يحل له من مال الله إلا حلتان : حلة للشتاء وحلة للصيف ، وما يحج به ويعتمر ، وقوته وقوت أهله، كرجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، هذا ما سنه عمر الصالح ، فلم لا يتبعه معاوية ؟ إن مال الفىء ينبغى أن يقسم على المسلمين ، كما كانت الحال فى عهد النبىّ وأبى بكر وعمر . أصبحت الضياع والدور تقتنى ، ويصرف لتجميلها آلاف الدنانير ، ويترك المسلمون . لقد حج عمر ، فأنفق فى ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر دينارا ، فالتفت إلى ولده ، وقال : « لقد أسرفنا فى نفقتنا فى سفرنا هذا » . إن عمر أمير المؤمنين يصرف ستة عشر دينارا فى حجة فيستكثرها ، ومعاوية يوزع الآلاف لبنى أمية ، فيستقلها !

فهمس أحد الجالسين بالقرب منه : « إنك تخوض فى معاوية ، فحاذر » .

فالتفت أبو ذر إليه ، وقال : « أوصانى خليلى أن أقول الحق ولو كان

مرا ، وألا أخشى فى الله لومة لائم ، و إنى أدعو دعاءه : « اللهم إنى أعوذ بك من الجُبْن ، وأعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » . ثم استأنف :

« تفنن القوم فى إعداد الطعام ، وأصبح الرجل يأكل من ألوانه حتى يلتمس لذلك دواء يُمْرِئه ، وقد خرج النبىّ من الدنيا ولم يملأ بطنه فى يوم من طعامين ، كان إذا شبع من التمر ، لم يشبع من الخبز ، وما شبع آل محمد غَداء وعَشاء من خبز الشعير ثلاثة أيام متتابعات ، حتى لحق بالله ، وكان يمر بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم هلال ثم هلال لا يوقد فى شىء من بيوته نار ، لا لخبز ولا لطبخ .

فسأل واحد : بأى شىء كانوا يعيشون ؟

قال : بالتمر والماء ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماملأ آدمىّ وعاء شرا من بطنه ، حسب ابن آدم لُقَيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إياكم والبطنة ، فإنها مكسلة عن الصلاة ، ومفسدة للجسم ، ومؤدية إلى السقم ، وعليكم بالقصد فى قوتكم ، فهو أبعد من السَّرَف ، وأصح للبدن ، وأقوى على العبادة » .

لا تحسبوا أن صحابة الرسول كانوا يزهدون فى الدنيا لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه ، لا . بل إرضاء لله ، وطمعا فيما وعدهم الله به ، لقد قالت حفصة لعمر بعد أن وسع الله من الرزق ، و بعد أن تدفقت الأموال على المدينة : « يا أمير المؤمنين ، لو اكتسيت ثوبا هو ألين من ثوبك ، وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك ، فقد وسع الله من الرزق ، وأكثر من الخير » . فقال : « إنى سأخاصمك إلى نفسك : أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم يلقى من شدة العيش ، وكذلك أبو بكر » . فما زال يذكرها حتى أبكاها ، فقال لها : « أما والله لأشاركنهما فى مثل عيشهما الشديد ، لعلى أدرك عيشهم الرضىّ » . كان رسول الله يأخذ خمس الغنائم ، فلم يكنز شيئا ، ولم يدخر شيئا ، بل كان يتصدق بما يصل إليه ، ولا يجد بعدها ما يأكله ، وقد رأته عائشة يتألم من الجوع ، فقالت له : « يا رسول الله ، ألا تستطعم الله فيطعمك ؟ » وبكت لما رأت به من جوع ، فقال : « ياعائشة والذى نفسى بيده ، لو سألت ربى أن يجرى معى جبال الدنيا ذهبا لأجراها حيثُ شئت من الأرض ؛ ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها ، وفقر الدنيا على غناها ، وحزن الدنيا على فرحها ، يا عائشة ، إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة ، إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبرَ على مكروه الدنيا ، والصبرَ على محبوبها ، ولم يرض إلا أن يكلفنى ما كلفهم ، فقال : « فاصبرْ كما صبرَ أولو العزم من الرسل » . والله مالى بد من طاعته ، وإنى والله لأصبرَن كما صبروا جهدى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الخروج

استمر أبو ذر فى دعوته ، واشتد فى مهاجمة الأغنياء ، وجعل ينهى عن الكنز ، ويطلب مواساة الفقراء ، وتوزيع المال على المسلمين كافة ، كما كانت الحال فى عهد النبى ، وأبى بكر وعمر ، فوجد الفقراء على الأغنياء ، والتجأ الأغنياء إلى معاوية ، وجعلوا يشكون إليه ما يلقونه من الناس ، بسبب دعوة أبى ذر فأرسل معاوية فى طلبه ، وقد عقد العزم على أن يقطع دابر هذه الفتنة التى قد تقوض سلطانه ، وتحطم آماله .

دخل أبو ذر على معاوية بقامته الطويلة النحيلة ، وقد ارتسم على وجهه الأسمر آيات العزم ، فقام معاوية لاستقباله ، وأجلسه بجواره ، ثم نادى على الخدم ، وأمرهم أن يحضروا الطعام ، فمد الخوان ، ووضع عليه ما لذ وطاب من ألوان الطعام الشهية ، التى تتحلب لها الأفواه ، وطلب معاوية من أبى ذر أن يأكل ، فأبى وقال :

— طعامى فى كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا أزيد عليه شيئا حتى ألقاه .

ثم التفت إلى معاوية ، وقال :

— قد غيرتم : ينخل لكم الشعير، ولم يكن ينخل ، وخبزتم المرقق ، وجمعتم إدامين ، واختلف عليكم بألوان الطعام ، وغدا أحدكم فى ثوب ، وراح فى آخر ، ولم تكونوا هكذا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

— لقد انقضى ذلك العهد ، ونحن هنا فى بلد الأعاجم ، فإن لم نظهر أمامهم بالمظهر اللائق ، استخفوا بنا .

— أما أنا فلن أغير من هيأنى شيئا ، عسى أن أكون أقربكم مجلسا من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، وذلك أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أقربكم منى مجلسا يوم القيامة ، من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيها » وإنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث بشىء منها غيرى .

— يا أبا ذر ، لقد اشتكى الأغنياء منك ، وقالوا إنك تؤلب الفقراء عليهم .

— إنى أنهاهم عن الكنز .

— ولمه ؟

— لقوله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) فإنى أبشرهم بعذاب الله .

— إن هذه الآية نزلت فى أهل الكتاب .

— بل نزلت فينا وفيهم .

— إنى آمرك أن تكف .

— والله لأستمرن على دعوة الناس إلى الزهد ، وعلى تحذيرهم الكنز ، ولأبشرن الكانزين بعذاب النار .

— خير لك أن تنتهى عما أنت فيه .

— والله لا أنتهى حتى توزّع الأموال على الناس كافة .

فقال معاوية مهددا :

— يا أبا ذر ، هذا فراق بينى وبينك ، فحاذر .

— قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

* * *

توضأ أبو ذر ، وجلس فى المسجد ، وجعل يقرأ بعض ما تيسر من القرآن ، وأقبلت ابنته وعليها صوف ، سعفاء الخدين ومعها قفة لها ، فمكثت بين يديه ، وقالت :

— يا أبتاه ، زعم الخازنون والزارعون أن أفلسك هذه بهرجة .

— يابنية ، ضعيها ، فإن أباك أصبح بحمد الله لا يملك من صفراء ولا بيضاء إلا أفلسه هذه .

وانصرفت ابنته ، وأقبل معاوية يحف به خدمه وحشمه .

ثم نودى لصلاة الجمعة ، فصعد معاوية المنبر ، يخطب الناس ، فقال :

— إنما المال مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه .

فقام رجل إليه ممن حضر المسجد ، فقال :

— كلا . إنما المال مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن حال بيننا وبينه ، حاكمناه إلى الله بأسيافنا .

فأطرق معاوية قليلا ، وخطر فى نفسه أنه ما لقنه ذلك إلا أبو ذر ، فهل يبطش معاوية به ، ليجعله عبرة للناقمين عليه ؟ ألا يكون البطش به دافعاً إلى اندلاع لهيب الثورة ؟ فكر معاوية الداهية ، فعلم أن خير حل هو مصانعته ، فأرسل إلى الرجل بعد أن قضيت الصلاة ، وقال للناس :

— إن هذا أحيانى — أحياه الله — سمعت رسول الله يقول :

« سيكون بعدى أمراء يقولون ولا يُرَدُّ عليهم ، يتقاحمون فى النار كما تتقاحم القردة » .

وانقضت صلاة الجمعة بسلام ، وانصرف معاوية بوجه باسر ، يعض على نواجذه ، ودخل قصره وهو يُرْغِى و يُزْبِد ، ودخل عليه بعض أهله فأنكروه ، وقال له أحدهم :

— ما بك ؟ ومالى أراك اليوم محنقا ؟

— أعضل بى أبو ذر ، والله ليفسدن القوم علينا إن تركناه .

— والله لأكفينكه ،

— لن تفلح الشدة معه .

— من يدرى ؟

وانطلق الرجل إلى دار أبى ذر ، وطرق الباب بشدة ، وفتح الباب ، وتطلع أبو ذر إلى الطارق ، فلم يعرفه ، ولكن عرف الشر فى وجهه ، فقال :

— خيرا ؟

— بل شرا يا أبا ذر ، إن لم تنته عن مهاجمة معاوية ، وتأليب الناس عليه ، فلن تمشى على الأرض بعد اليوم .

فقال أبو ذر بصوت كله هدوء ، وكله اطمئنان :

— إنى لا أهاب الموت ولا أخشاه .

— يا أبا ذر ، دع ما أنت فيه ، ولا تغضب معاوية ، خير لك .

— إغضاب معاوية خير لى من إغضاب الله .

— ثب إلى رشدك ، ولا توغِر صدور القوم علينا ، وكف عن دعواك .

— والله لا أكف حتى يُوزّع المال على جميع المسلمين .

— والله إنا نعلم لحساب من تعمل ، والله إن لم تكف لنصبن عليك سوط عذاب .

— والله لا أكف حتى ترجعوا إلى كتاب الله .

فأطرق الرجل ، وفكر فى استعمال سلاح الإغراء عسى أن يُلين ذلك الرجل الذى لا يلين ، فقال :

— يا أبا ذر ثكلتك أمك ، إن عليا لا يستطيع أن يجزيك أو يمنع عنك أذانا ، أما معاوية فأمواله كالبحر الزاخر ، وهى طوع بنانك .

— لا حاجة بى إلى أموالكم ، وإنى لا أطمع إلا فى رضا ربى وما عند الله .

— لقد أعذر من أنذر ، إنك تسير إلى حتفك بظلفك .

— الموت أحبّ إلىّ من الحياة .

***

حاقت الخطوب بأبى ذر من كل جانب ، وأصابه بلاء شديد على أيدى بنى أمية ، فالاضطهاد وقع به ، والأموال منعت عنه ، فلم يهن ، ولم يضعف ، ولم يتزعزع ، بل ازدادت حملته على الأغنياء شدة ، وناوأ معاوية جهارا ، وفى يوم وقف يخطب الناس :

— إن بنى أمية تهددنى بالفقر والقتل ، وللفقر أحب إلى من الغنى ، ولبطن الأرض أحب إلى من ظهرها . يا معشر الأغنياء : أنفقوا مال الله على عباده ، ولا تقولوا « يد الله مغلولة » ، و « إن الله فقير ونحن أغنياء » . « إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم ، فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حليم ، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » .

استمر أبو ذر فى الحملة على كانزى المال ، وفى الدعوة إلى تقسيم المال على جميع المسلمين كافة . وأسدل الليل سدوله ، فانطلق إلى داره ، وفى الطريق تذكر أنه ترك ابنته وقد اشتد المرض بها ، فأغذ السير ، وأحس كأن صوتا خافتاً ينبعث من جوفه يردد : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة . . .

إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، وأخذ الهمس يشتد ، حتى أمسى صوتا يدوى في أذنيه ، ولما بلغ الدار دخل مسرعا ، فألفى ابنته مُسَجَّاة ، وبجوارها أمها وقد علا وجهها الإظلام ، وغامت عيناها بالدمع ، ولما رأته سالت عبراتها ، وأجهشت بالبكاء ، فأطرق وغمغم :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم جلس وأطرق ، فعاد به فكره إلى يوم كان فى يثرب مع النبىّ قبل أن تسلم قريش ، يوم أغار القرشيون على المدينة صباحا ، وقتلوا ابنه ، ثم ولوا هاربين ، وتذكر مواساة النبى له فغمغم :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ، إنما يولدون للموت ، ويعمِّرون للخراب . .

* * *

استأنف أبو ذر دعوته ، وراح يبشر الكانزين بعذاب أليم ، وجعل معاوية يفكر فى التخلص منه ، والقضاء عليه بأية وسيلة ، فهداه تفكيره إلى أنه لو استطاع أن يثبت الكنز على ذلك الذى يعيب الكنز ، ويحمل على الكانزين ، لكان فى ذلك قضاء عليه مبرم ، وراح يقدح زناد فكره ، حتى وضع الخطة التى اطمأن إليها ، وحسب أنها ستصل به إلى غرضه المنشود ، وراح يسدد ضربته .

دعا معاوية رسولا ، وأعطاه ألف دينار ، وأرسله بها فى جنح الليل إلى أبى ذر ، ثم لما صلى معاوية الصبح ، دعا رسوله الذى أرسله إليه ، فقال له :

— اذهب إلى أبى ذر ، فقل له أنقذ جسدى من عذاب معاوية ، أرسلنى إلى غيرك ، وإنى أخطأت بك . . .

فانطلق الرسول ، وقابل أبا ذر ، وقال له ما لقنه معاوية . . .

فقال أبو ذر : يا بنى ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار ، ولكن أخرنا ثلاثة أيام ، حتى نجمعها .

علم معاوية أن أبا ذر أنفق الألف الدينار على الفقراء ، عقب استلامها ، وأنه لم يبقها فى داره ليلة واحدة ، فأيقن أن فعله يصدق قوله ، وأن سهمه الذى سدده قد طاش .

حاول معاوية اللين مع أبى ذر ، فلم يفلح ، وحاول الشدة ، فلم يفلح ، وحاول شراءه ، فلم يفلح ، فلم يبق أمامه إلا إخراجه من الشام ، فكتب إلى أمير المؤمنين عثمان :

« إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع ، وقد ضيق علىّ ، وأعضل بى ، ولا آمن أن يفسدهم عليك ، فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله » .

فرد عليه عثمان : « إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، ولم يبق إلا أن تثب ، فلا تنكأ القرح ، وجهز أبا ذر إلىّ ، وابعث معه دليلا ، وزوّده وارفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت » .

البـــلاء

بلغ كتاب أمير المؤمنين معاوية ، فحمل أبا ذر على بعير عليه قتب يابس ، ومعه خمسة من الصقالبة ، يطيرون به ، ولا يدعونه يستريح فى الطريق ، حتى تسلخت بواطن أفخاذه ، وكاد أن يتلف ، وأصابه كرب شديد ، فأطرق وقد ارتسم على محياه الألم ، وحز فى نفسه أن يلقى كل هذا البلاء : لأنه يدعو إلى المعروف ، واتباع ما جاء به كتاب الله ، ثم تذكر يوم كان يسير مع النبىّ فى دروب يثرب ، وقد قال له الرسول : « يا أبا ذر إنك رجل صالح ، وسيصيبك بلاء بعدى » فيسأله « فى الله ؟ » فيجيبه « فى الله » . فيقول : « إذن مرحبا بأمر الله » ، فامتلأ قلبه ثباتاً واطمئنانا ، وانقشعت سحابة الألم التى كانت تغيم على وجهه ، وحل محلها هدوء وصفاء .

وبلغ الركب المدينة ، ورأى أبو ذر المجالس فى أصل جبل سلع ، فقال :

— بشِّر أهل المدينة بغارة شعواء ، وحرب مِذكار .

ودخل أبو ذر على عثمان ، وكان عنده علىّ وبعض المسلمين ، فلما رآه عثمان قال :

— لا أنعم الله بك عينا يا جُنَيدب

— أنا جنيدب ، وسمانى رسول الله عبد الله ، فاخترت اسم رسول الله الذى سمانى به على اسمى .

— ما لأهل الشام يشكون ذَرَب لسانك ؟

— لقد كنز الناس فبشرتهم بمكاو من نار .

— أنت الذى تزعم أنا نقول إن يد الله مغلولة ، وإن الله فقير ونحن أغنياء ؟

— لو كنتم لا تزعمون لأنفقتم مال الله على عباده ، نصحتك فاستغششتنى ، ونصحت صاحبك فاستغششتنى .

— كذبت ، ولكنك تريد الفتنة وتحبها ، قد أنغلت الشام علينا .

— اتبع سنة صاحبيك ، لا يكون لأحد عليك كلام .

— مالك وذلك ؟ لا أم لك .

— والله ما وجدت فىّ عُذرًا إلا الأمرَ بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

فظهر الغضب فى وجه عثمان ، وقال :

— أشيروا علىّ فى هذا الشيخ الكذاب ، إما أن أضربه أو أقتله ، فإنه قد فرق جماعة المسلمين ، أو أنفيه من أرض الإسلام . . . فقال على :

أشير عليك بما قاله مؤمن آل فرعون : « فإن يكَ كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » .

فأجاب عثمان بجواب غليظ ، اتهم فيه أبا ذر بأنه عين لعلىّ ، فأجاب علىّ بجواب أغلظ ، وارتفع الجدل ، فدخل الناس بينهما ، وأخيرا قال عثمان :

— إنى أحظر على الناس أن يقاعدوا أبا ذر أو يكلموه .

وخرج أبو ذر من عند عثمان ، فكثر الناس عليه ، كأنهم لم يروه قبل ذلك ، وفى يوم جلس فى المسجد ، وأقبل رجل وسأله :

— إن مصدقى عثمان ازدادوا علينا ، أنغيب عنهم بمقدار ما ازدادوا علينا ؟

— لا ، قف مالك وقل : « ما كان لكم من حق فخذوه ، وما كان باطلا فذروه ، فما تعدَّوا عليك جُعل فى ميزانك يوم القيامة .

فقال فتى من قريش :

— يا أبا ذر ، أما نهاك أمير المؤمنين عن الفتيا ؟

— أرقيب أنت على ؟ فو الذى نفسى بيده لو وضعتم الصمصامة (السيف) هنا (وأشار إلى عنقه) ، ثم ظننت أنى منفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تحزوا ، لأنفذتها .

ثم استأنف أبو ذر دعوته ، وراح يحمل على الأغنياء ، ويدعو إلى مواساة الفقراء وتقسيم المال على المسلمين ، وبلغ عثمان أن الناس تجتمع به فأرسل إليه ، فأقبل وكان كعب الأحبار وبعض المسلمين عنده ، فقال عثمان :

— يا أبا ذر ، ألا تكف عما أنت فيه ؟

— حتى يواسىَ الأغنياء الفقراء .

فالتفت عثمان إلى الجالسين وقال :

— أرأيتم من زكّى ماله ، هل فيه حق لغيره ؟

فقال كعب :

— لا يا أمير المؤمنين . .

فدفع أبو ذر فى صدر كعب ، وقال :

— كذبت يابن اليهودية ، ثم تلا : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون) .

فقال عثمان : يا أبا ذر ، لا يمكننى حمل الناس على الزهد ، ولكن علىّ أن أقضى بينهم بحكم الله ، وأرغبهم فى الاقتصاد .

فقال أبو ذر : لا نرضى عن الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ، و يحسنوا للجيران والإخوان ، و يصلوا القرابات .

فقال كعب الأحبار : من أدى الفريضة ، فقد قضى ما عليه .

فرفع أبو ذر العصا ، فدفع بها فى صدر كعب .

وأتى بتركة عبد الرحمن بن عوف من المال ، فنصبت البدزة ، حتى حالت بين عثمان و بين الرجل القائم .

فقال عثمان : إنى لأرجو لعبد الرحمن خيرا ، لأنه كان يتصدق ، و يقرى الضيف ، وترك ما ترون .

فقال كعب : صدقت يا أمير المؤمنين ، قد كسب طيبا وأنفق طيباً ، وترك طيباً ، لقد أعطاه الله خير الدنيا والآخرة .

فشال أبو ذر العصا ، فضرب بها رأس كعب فشجّه ، وقال :

— يابن اليهوديّ ، تقول لرجل مات وترك هذا المال : إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة ، وتقطع على الله بذلك ، ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً نحو أحد وأنا معه ، فقال « يا أبا ذر » ، فقلت « لبيك يا رسول الله » . فقال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال كذا وكذا ، عن يمينه ، وشماله ، وقدامه ، وخلفه ، وقليل ما هم » ثم قال : « يا أبا ذر » فقلت « نعم يا رسول الله بأبى أنت وأمى » . قال : « ما يسرنى أن لى مثل أحد أنفقه فى سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراطين » قلت « أو قنطارين يا رسول الله » . قال « بل قيراطين » . ثم قال : « يا أبا ذر ، أنت تريد الأكثر ، وأنا أريد الأقل » فرسول الله يريد ذلك ، وأنت تقول يا بن اليهودية أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف .

واستوهب عثمان كعباً شجته ، فوهبه ، فقال عثمان لأبى ذر :

— ما أكثر أذاك لى ، دار عنى وجهك .

— أسير إلى مكة .

— لا والله .

— فتمنعنى من بيت ربى أعبده فيه حتى أموت ؟

— إى والله .

— فإلى الشام .

— لا والله .

— البصرة .

— لا والله ، فاختر غير هذه البلدان .

— لا والله ، ما أختار غير ما ذكرت لك ، ولو تركتنى فى دار هجرتى ما أردت شيئاً من البلدان ، فسيِّرنى حيث شئت من البلدان .

— فإنى مسيرك إلى الرَبَذَة . . .

فى الربذة

دعا عثمان مروان ، وأمره أن يخرج بأبى ذر إلى الربذة ، ونهى الناس أن يصحبوه فى مسيره أو يشيعوه ، وامتطى أبو ذر راحلة ، وامتطى مروان أخرى ، وراحا يخترقان طرق يثرب ، وصدع الناس لأمر أمير المؤمنين ، فتجافوه وجعل أبو ذر يدير عينيه فيما حوله ، ويلقى عليها نظرة وداع ، وكان كلما مر بمكان تذكر ما مر به من أحداث فى عهد الرسول ، فهاجت الذكريات نفسه ، وأطرق حزيناً ، ولـكن رن فى أذنيه الحوار الذى دار بينه و بين الرسول « سيصيبك بلاء بعدى » : « فى الله ؟ » « مرحبا بأمر الله » .

فرفع أبو ذر رأسه ، وانطلقا حتى أغمض الأفق جفنيه عليهما .

وأقبل علىّ ومعه أبناه الحسن والحسين وعقيل أخوه ، وعبد الله بن جعفر ، وعمار بن ياسر ، وعلموا أن عثمان أمر بإخراج أبى ذر من يثرب ، فأسرعوا خلفه ، وأغذوا السير حتى لحقوا به خارج المدينة ، وأقبل علىّ ليحادثه ، فحاول مروان أن يمنعه ، وقال :

— يا علىّ ، إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر فى مسيره أو يشيعوه ، فإن كنت لم تدر بذلك ، فقد أعلمتك .

فلم يلتفت علىّ إليه ، وتقدم نحو أبى ذر ، وحاول مروان أن يحول بينهما فحمل علىّ عليه بالسوط بين أذنى راحلته ، وقال :

— تنح نحاك الله إلى النار .

فلوى مروان عنان راحلته ، وترك أبا ذر لهم ، وقفل عائداً إلى أمير المؤمنين ليشكو له ما لقى من ابن أبى طالب .

ومضى عليّ ورفقاؤه مع أبي ذر ، حتى بلغوا الربذة ، فنزلوا عن رواحلهم، وجلسوا يتحدثون ، وحان وقت الوداع ، فنهض عليّ ، وأحس أبو ذر غصة في حلقه ، وضم عليا إلى صدره ، فانهمر الدمع من عينيه وغمغم :

— رحمكم الله أهل البيت ، إذا رأيتك يا أبا الحسن ووليديك ، ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أسرع مروان إلى عثمان ، فشكا إليه مافعله عليّ بن أبي طالب ، فنهض عثمان وقال : « يامعشر المسلمين ، من يعذرني من علي ، رد رسولي عما وجهته له ، وضربه ، والله لنعطينه حقه .

ورجع علي بعد أن ترك أبا ذر بالربذة ، فاستقبله الناس ، وقالوا له :

— إن أمير المؤمنين عليك غضبان ، لتشييعك أبا ذر . . .

قال علي :

— غضب الخيل على اللجم .

وأتى المساء ، وجاء عليّ إلى عثمان ، فقال عثمان :

— ما حملك على ما صنعت بمروان ؟ واجترأت عليّ ورددت رسولي وأمري ؟

— أما مروان ، فإنه استقبلني يردني ، فرددته عن ردّي ، وأما أمرك فلم أرده . . .

— أولم يبلغك أني قد نهيت الناس عن أبي ذر وتشييعه ؟

— أو كل ما أمرتنا به من شيء — نَرَى طاعة الله والحق في خلافه — اتبعنا فيه أمرك ؟ بالله لا نفعل .

— أقد مروان . . .

— وما أقيده . . ؟

— ضربت بين أذنى راحلته .

— أما راحلتى فهى تلك ، فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل ، وأما أنا فو الله لئن شتمنى لأشتمنك أنت مثلها ، بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقاً .

— ولم لا يشتمك إذا شتمته ؟ فو الله ما أنت عندى بأفضل منه .

فغضب علىّ وقال :

— ألى تقول هذا القول ؟ وبمروان تعدلنى ؟ فأنا والله أفضل منك ، وأبى أفضل من أبيك ، وأمى أفضل من أمك .

فغضب عثمان ، واحمر وجهه ، فقام ودخل داره ، وانصرف علىّ ، فاجتمع إليه أهل بيته ، ورجال من المهاجرين والأنصار ، يحاولون تهدئته .

وفى صبيحة اليوم التالى ، اجتمع الناس إلى عثمان ، فشكا إليهم علياً ، وقال :

— إنه يعيبنى ، ويظاهر من يعيبنى .

فدخل الناس بينهما ، وعادت الحال إلى ما كانت عليه ، قبل نفى أبى ذر ، وقال علىّ لعثمان :

— والله ما أردت تشييع أبى ذر إلا لله .

* * *

وبلغ معاوية أن عثمان قد نفى أبا ذر إلى الربذة ، فقصد زوجة أبى ذر ، ليخرجها إليه ، فخرجت ومعها جراب ، فالتفت معاوية إلى من حوله وأشار إلى الجراب ، وقال ليشهر بأبى ذر :

— انظروا إلى هذا الذى يزهد فى الدنيا ما عنده .

فقالت امرأة أبى ذر :

— أما والله ما هو دينـار ولا درهم ، ولـكنها فلوس كان إذا خرج عطاؤه ابتاع منه فلوساً لحوائجنا .

وانطلقت امرأته حتى لحقت به بالربذة ، فألفته قد ابتنى مسجدا ، ورأت عثمان قد أقطعه صرمة من الإبل ، وأعطاه مملوكين ، وأجرى عليه كل يوم عطاء .

وفى يوم من الأيام ، اتجه نعيم الرياحى إلى الربذة ، فوجد زوجة أبى ذر ، فسألها عن زوجها ، فقالت :

— هو ذاك فى ضيعة له .

فانتظر نعيم ، وأقبل أبو ذر يقود بعيرين ، وكان قاطرا أحدهما فى عجز صاحبه ، وفى عنق كل واحد منهما قربة ، فوضع القربتين ، واقترب منه نعيم وقال :

— يا أبا ذر ، ما كان من الناس أحد أحب إلىّ أن ألقاه منك ، ولا أبغض أن ألقاه منك .

— لله أبوك ، وما يجمع هذا ؟

— إنى كنت وأدت فى الجاهلية ، وكنت أرجو فى لقائك أن تخبرنى أن لى توبة ومخرجاً ، وكنت أخشى فى لقـائك أن تخبرنى أنه لا توبة لى .

— أفى الجاهلية ؟

— نعم .

— عفا الله عما سلف .

وأقبل موسم الحج ، فـكثر مرور الناس بالربذة ، وكانوا يصلون بمسجد أبى ذر ، ويتحدثون معه ، وأقبل بعض الحجيج ، فوجدوه قائما يصلى ، فانتظروه حتى فرغ من صلاته ، ثم أقبل بوجهه فقال :

— هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق .

ثم بكى واشتد بكاؤه ، وقال :

— قتلنى حُبّ يوم لا أدركه .

— وما يوم لا تدركه ؟

— طول الأمل .

وجلس فجلس الناس إليه ، ورأى بعضُ القوم أن يخوضوا فى عثمان إرضاء له ، ولـكنه نهاهم ، ونهض وسار خلفه غلامه ، وكان عليه حلة ، وعلى غلامه مثلها ، فسأله المعرور بن سويد عن ذلك ، فقال أبو ذر :

— قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إخوانـكم خَوَلـكم جعلهم الله قِنية تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه من طعامه ، وليلبسه من لباسه ، ولا يكلفه ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه » .

واستأنف أبو ذر سيره ، حتى بلغ داره ، فجلس أمامه على قطعة جوالق ، فأقبل نحوه رجل كان قد رأى زوجته . فألفاها شعثة ، سحماء ، سوداء ، فجلس إليه ، وقال له :

— إنك امرؤ ما تبقى لك ولد .

— الحمد الله الذى يأخذهم من دار الفناء ، ويدخرهم فى دار البقاء .

— يا أبا ذر ، لو اتخذت امرأة غير هذه ؟

— لأن أتزوج امرأة تضعنى ، أحبّ إلى من امرأة ترفعنى .

— لو اتخذت بساطا ألين من هذا ؟

— اللهم غفرا ، خد مما خوّلت ما بدا لك .

وذهب الحجيج ، وبقى أبو ذر وزوجته وغلاماه فى الزبدة ، وجعل أبو ذر يقطع الوقت فى التعبد ، ودارت عجلة الزمن دورة ، فاستأذن عثمان

فى الحج ، فأذن له ، فانطلق حتى بلغ مكة ، فقام عند الكعبة ، وقال :

— يأيها الناس ، أنا جندب الغِفارى ، هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق ،
فاكتنفه الناس فقال :

— أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا ، أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه ؟

قالوا : بلى .

قال : فإن سفر طريق القيامة أبعد ما تريدون ، فخذوا ما يصلحكم .

قالوا : وما يصلحنا ؟

قال : حجوا حجة لعظائم الأمور ، وصوموا يوما شديدا حره لطول النشور ، وصلوا ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور . كلمة خير تقولها ، أو كلمة شر تسكت عنها ، لوقوف يوم عظيم . تصدق بمالك ، لعلك تنجو من عسيرها ، اجعل الدنيا مجلسين : مجلساً فى طلب الحلال ، ومجلسا فى طلب الآخرة ، الثالث يضرك ولا ينفعك ، لا تُرده ، اجعل المال درهمين : درهما تنفقه على عيالك من حله ، ودرهما تقدمه لآخرتك ، الثالث يضرك ولا ينفعك ، لا تُرده .

وحج أبو ذر واتجه إلى منى ، فبينا هو جالس إذ أقبل رجال وأخبروه أن عثمان صلى أربعا فى السفر ، فظهر على أبى ذر الغضب ، وقال قولا شديدا ، ثم قال :

— صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر ، فصلى ركعتين ، وصليت مع أبى بكر وعمر ، فكيف أتم عثمان الصلاة ؟

وقام فصلى أربعا ، فجعل الموجودون يرمقونه متعجبين ، ولما فرغ من صلاته قالوا له :

— عبت على أمير المؤمنين شيئاً ، ثم تصنعه ؟

— الخلاف أشد ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا يوما وقال : « إنه كائن بعدى سلطان فلا تذلوه ، فمن أراد أن يذله فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، وليس بمقبول منه توبة ، حتى يسد ثلمته التى ثلم ، وليس بفاعل » .

إلى دار البقاء

عاد أبو ذر إلى الربذة ، وذهب الحاج ، وأقفرت الطرق من الناس ، فانقطع أبو ذر للعبادة ، وفى يوم أحس وهنا وضعفا ، وشعر بالموت يزحف نحوه ، فالتفت إلى زوجه ، وقال :

— دنا الفراق .

— ما بالك اليوم ؟

— والله لنتركن دار الغرور قريبا إلى دار البقاء .

وتصرمت الأيام ، ومرض أبو ذر ، وازدادت وطأة المرض عليه ، فأسبل عينيه ، وراح فى غيبوبة ، ولما أفاق فتح عينيه ، فألفى زوجه تبكى ، والدموع تنهمر على خديها ، فغمغم :

— ما يبكيك ؟

— مالى لا أبكى وأنت تموت بفلاة من الأرض ، ولا يد لى بدفنك ، وليس عندى ثوب فأكفنك فيه .

— لا تبكى وأبشرى ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يموت بين امرأين مسلمين ولدان أو ثلاثة ، فيصبران ويحتسبان ، فيريان النار أبدا » ، أفلم يمت أولادنا وصبرنا واحتسبنا ؟ !

وصمت أبو ذر واستأنفت زوجه البكاء ، فقال :

— إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنفر أنا فيهم : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض ، تشهده عصابة من المؤمنين » .

وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد مات فى قرية أو جماعة ، وإنى أنا الذى أموت بفلاة ، والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتُ فأبصرى الطريق .

— أنَّى وقد انقطع الحاج وتقطعت الطرق ؟

— انظرى !

فخرجت وتركته وراحت تشتد إلى الكثيب ، إرضاء له ، ثم ترجع إليه فتمرضه ، فيأمرها أن تنظر ، فتشتد إلى الكثيب ، فبينا هى على الكثيب إذ بها ترى رجالا على رواحلهم ، كأنهم الرخَم ، فألاحت لهم ، فأسرعوا إليها ، ووضعوا السياط فى نحور رواحلهم ، يستبقون إليها ، ولما بلغوها قالوا :

— مالك يا أمَة الله ؟

— امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه .

— ومن هو ؟

— أبو ذر .

— صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

— نعم .

— بأبى أنت وأمى يا أبا ذر .

وأسرعوا إليه ، حتى دخلوا عليه ، فسلموا عليه ، وقال بصوت خفيض :

— لو كان عندى ثوب يسعنى كفنا أو لامرأتى ثوب ، لم أكفن إلا فى ثوب هو لى أو لها . وإنى أنشدكم الله ، لا يكفنّى رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو بريدا أو نقيبا .

فتلفت القوم بعضهم إلى بعض ، فليس من القوم أحد إلا وقد قارف من ذلك شيئا ، إلا فتى من الأنصار ، فقال :

— أنا أكفنك فى ردائى هذا ، وفى ثوبين فى عيبتى من غزل أمى حاكتهما لى .

— أنت صاحبي فكفِّنِّي.

وحشرج أبو ذر حشرجة الموت ، ولفظ النفس الأخير ، وكفنه القوم.

وأقبل ابن مسعود منصرفا من الكوفة ، فعلم بموته ، فصلى عليه و بكى ، وقال :

— صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تمشي وحدَك ، وتموت وحْدَك ، وتُبعَث وحْدَك » .


دار مصر للطباعة
٣٧ (أ) شارع كامل صدقي "الفجالة"


Bibliotheca Alexandrina
0213069